حراس الشريعة

مجلة إسلامية شهرية

العدد الثالث - رجب ١٤٣٤

ملف العدد

التشيع
رؤية من الداخل

الإمامة والعصمة والصحابة

القرآن والغلو

ولاية الفقيه البناء العقدي والتاريخي

بدر باقر / حافظ أسدرم / د. أحمد سيد

يا أصنام الأوهام تكسري

محمد براء ياسين

المخزون الفلسفي في الإسلام وضرورة التنقيب

سلطان العميري

شعارات مارسيليزية

يسرا جلال

كتيب العدد

رد الاعتراضات الأزهرية على المقولة السلفية

عمرو بسيوني

المضامين الإلحادية في السينما الأمريكية

أدهم حسين



هيئة التحرير
أحمد سالم - خالد بهاء الدين (الأزهري السلفي)
عمرو بسيوني - محمد عبد الواحد

مدير التحرير
معتز رضا زاهر

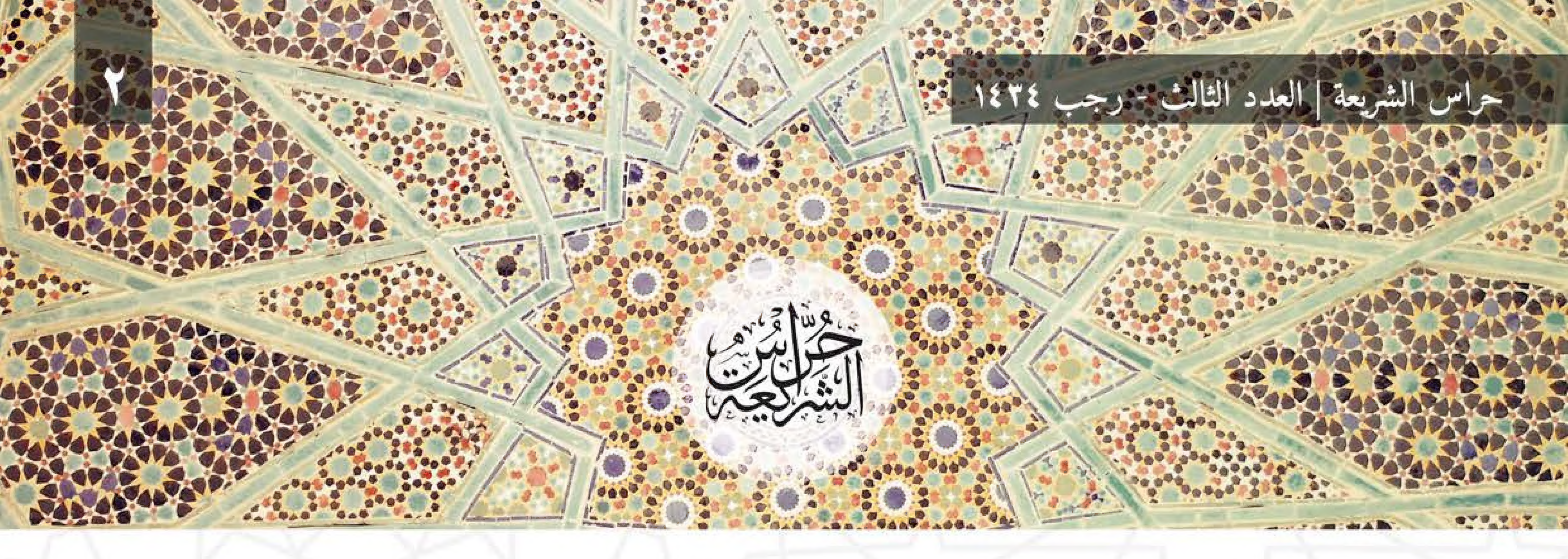
تصميم وتنفيذ
شادي عاطف | شركة Active للدعاية الرقمية والإعلان المطبوع

المدونة: http://alhorras.wordpress.com

فيس بوك: facebook.com/AlHorras

تويتــــــر: twitter.com/ALHorras

البريدالإليكتروني: horras.sh@gmail.com



الحمد لله وحده ..

لا يمكنك أن ترد واقع التجريف الثقافي وضحالة الوعي المنتشرة بين المسلمين اليوم إلى عامل واحد.
الظروف السياسية والاقتصادية، ومناهج التعليم، والأمية التربوية، وخنق الاستبداد للمجتمع ومحاصرته له=كل تلك العوامل وغيرها ساهمت في هذه النتيجة المحزنة والخطيرة في الوقت نفسه.

وساهمت الثورة المصرية والمتغيرات الاجتماعية والسياسية بعدها في زيادة واقع التجريف، وذلك بسبب التداعي المجتمعي تحت وطأة الحروب السياسية التي عاشها الناس خلال العامين الماضيين، خاصة مع انشغال كبرى الحركات الاجتماعية الإسلامية وغير الإسلامية في أتون السياسة الملتهب.

فسيلة المؤمن، الأشياء الصغيرة الفعالة، اجتماع النقط، طلب الفتح بطول الطَرْق، كل تلك المعاني هي ما يفتح للناس أفق الإصلاح رغم ضعف ما بين أيديهم من الإمكانات، وهي في الوقت نفسه ما يقطع عليهم باب العذر؛ إذ لا قعود حينئذ إلا من كسل وعجز.

بين صفحات هذه المجلة ستقابلك مجموعة من الأقلام تكسر الحدود ولا تعرف غير الإسلام رابطة تجتمع عليها؛ لتشترك في هم أساسي واحد هو محور اجتماعهم بقطع النظر عن مواطن اتفاقهم واختلافهم الأخرى؛ إنه هم الثقافة والوعي، وسبل إعادة إخصاب هذه الأرض المجرفة، واستثمار ما فيها من بقايا البذور ومكاثرتها، وتعاهدها بالسهر والري، وقتل ما قد يعرض لها من الآفات التي تريد اغتيالها قبل أن تؤتي أُكُلها.

لم تجتمع هذه النخبة لتحملك على موافقتها الرأي، وإنما لتحرضك على تجويد صناعة الرأي.
لم تجتمع هذه النخبة لتصنع منك نسخة منها بل لعلها لا ترجو شيئًا كرجائها أن تكون نسيج وحدك.
لم تجتمع هذه النخبة لتلقنك أفكارها، وإنما لتقيم لك أمثلة في طرائق إقامة الأفكار؛ لتقيم أنت صروح أفكارك.

الدين والوحي والفقه والوعظ والأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع والتاريخ وكل ما له صلة بتجويد صناعة التفكر ستجدونه بين جنبات هذه المجلة، تعاملوا معه على أنه بذور منثورة، وتابعوا معنا ومع غيرنا ومع أنفسكم مثنى وفرادى، وارتقبوا وقت حصاد ثمار أنفسكم بعد هذا البذر الطويل، وآتوا حقه يوم حصاده، واشكروا لله واعبدوه.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هيئة التحرير



المخزون الفلسفي في الإسلام وضرورة التنقيب

سلطان العميري

من أهم الصفات الجوهرية التي يؤكدها واقع الشريعة الإسلامية وطبيعة تشريعاتها: صفة الشمول والاستغراق؛ فقد استوعبت المنظومة الإسلامية كل التفاصيل المتعلقة بحياة الإنسان، وشملت ما يتعلق بأكله وشربه ونومه وبيعه وشرائه ونكاحه وصداقته وأحكام دابته ومركبه وغيرها من دقائق التفاصيل، وهذا الشمول داخل في معنى الكمال الذي وصف الله به الإسلام في قوله تعالى:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:3]

ومن المستبعد عقلًا أن تتعهد الشريعة الإسلامية بتقديم رؤية خاصة بها في تلك التفاصيل الحياتية، ثم لا تقدم رؤية خاصة بها فيما يتعلق بما هو أقوى وأخطر وأكثر عمقًا في حياة البشر؛ كقضية الوجود، والمعرفة ومنهجها، والأخلاق وأسسها، وحقيقة الإنسان والكون ومنزلة الإنسان فيه وعلاقته به، وهذه هي أهم القضايا التي تشكل بنية علم الفلسفة.

إن دينًا يتكفل بتنظيم حياة الإنسان وتقديم الخارطة التي تجعلها محققة لأكبر قدر من الوظيفة الكبرى التي وُجد من أجلها، وهي وظيفة التعبد لله والخضوع له، ويجعلها في الوقت نفسه مصطبغة بالصبغة الخاصة بالإسلام، إن دينًا يتكفل بذلك لابد أن يقوم بتقديم رؤية خاصة به فيما يتعلق بالقضايا المحورية التي هي أكثر التصاقًا بوظيفة العبودية، وأعمق أثرًا فيها، ويجعلها مصطبغة بالصبغة الخاصة به.

وإذا كان دين الإسلام جاء ليضبط حياة الإنسان ويدلها على الرشد والكمال ويقوم بتصحيح كل الأخطاء التي تؤدي بها إلى الانحراف عن الرشد -فإن من أَولى الأمور التي يجب أن يهتم بها قضية الوجود والمعرفة والأخلاق وحقيقة الإنسان وعلاقته بالكون؛ لأن هذه الأمور من أكثر ما يؤدي صلاحها ووضوح الرؤية فيها إلى الرشد والكمال، ومن أكثر ما يؤدي فسادها إلى الانحراف والبعد عن الرشد.

وإذا كان يجب علينا نحن المسلمين أن نبحث عن الرؤية الخاصة بالإسلام في تلك التفاصيل وأن نؤكد عليها ونحافظ على معالمها ورسومها وألا نقبل بأي انحراف عنها فإنه يجب علينا وجوبًا أوكد وأشد أن نبحث عن الرؤية الخاصة بالإسلام في قضية الوجود والمعرفة والأخلاق والإنسان والكون، وأن نؤكد عليها ونحافظ على معالمها ورسومها، وألا نقبل بأي انحراف عنها؛ حيث إن هذه القضايا أعمق أثرًا وأخطر بعدًا في تسيير حياة الإنسان وتحديد مسالكها.

الفلسفة كمصطلح وافد:

معلوم بداهةً أن مصطلح الفلسفة ليس مصطلحًا شرعيًّا ولا هو مصطلح لغوي أصيل، وإنما هو لفظ معرَّب عن كلمة يونانية مركبة من جزئين: (فيلو - سوفيا)، وتعني "محب الحكمة"، وقد وقعت نفرة شديدة من هذا المصطلح نتيجة للسمعة السيئة التي التصقت به منذ نشأته الأولى، ونتيجة للحمولات المعرفية المخالفة لقطعيات الإسلام التي اندرجت تحته، ولأجل هذا بات عدد من الباحثين يتوجس كثيرًا من استعماله وربما يصل إلى حد المنع منه.

وإذا نحن طبقنا عليه قاعدة استعمال المصطلحات الوضعية -التي يضعها البشر- فإنه يمكننا أن نصل إلى موقف مقارب ومعتدل، وقاعدة المصطلحات الوضعية تقوم على أن العبرة في استعمال المصطلح راجعة إلى مضمونه وعدم مزاحمته للمصطلح الشرعي، فإذا كان مضمونه الظاهر منه مقبولًا وليس مخالفًا للشريعة ولم يُزاحَم به مصطلح شرعي مستقر فإنه والحالة هذه يجوز استعماله والأخذ به، وإذا كان مضمونه الظاهر منه مخالفًا للشريعة أو وقعت به المزاحمة للمصطلح الشرعي فإنه والحالة هذه لا يجوز استعماله.

وبناء عليه فإن مصطلح الفلسفة إذا تضمن معنى موافقًا للشريعة ولم يزاحم به مصطلح شرعي ثابت فاستعماله مقبول ويجوز الأخذ به، ويزيد من وجاهة هذا التأصيل ويقويه ما جاء عن الإمام أحمد أنه قال: "الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه". [سير أعلام النبلاء (10/81)]

ولكن مع التسليم بإمكانية القبول بمصطلح الفلسفة إلا أني لست متحمسًا لاعتماده في الاستعمال؛ لأنه لا يزال محملًا بحمولات ثقيلة ومتناقضة، ولابد لنا أن نبحث عن مصطلح آخر يكون سالـمًا من تلك الحمولات، ومحققًا لأكبر قدر من الرؤية الإسلامية، ومن المصطلحات المرشحة: "علم التفكير الإسلامي" أو "علم الحكمة الإسلامية".

علم الفلسفة في المجال الإسلامي وسوء النشأة:

قدر الله أن تكون نشأة علم الفلسفة في المجال الإسلامي نشأة مختلفة عن سائر العلوم الأخرى، فقد ظهر اسم الفلسفة عبر بوابة التراث اليوناني، وتشكلت معالمه ومقالاته عن طريق الاعتماد شبه التام على النقل عن الأمة اليونانية الوثنية، وتسبب ذلك في أن يتبنى كثير من المشتغلين بالفلسفة في المجال الإسلامي مقالات ونظريات تخالف قطعيات الشريعة وتناقض أصوله الكبرى تناقضًا بيِّنًا، وتوغلت تلك المادة المستعارة من الأمم الوثنية حتى أضحت الممثل الأبرز والأوضح للفكر الفسلفي، وباتت هي المقصودة بالفلسفة عند الإطلاق!



وهذه الحالة المناقضة لأصول الإسلام أحدثت ردة فعل عنيفة ضد الفلسفة بكل مشمولاتها: اسمها وعلومها وقضاياها ومسارها المعرفي والفكري، وتتالت مقالات الفقهاء في التحذير من الفلسفة والتنفير منها، ووصل الحال إلى إصدار فتاوي التحريم والتجريم.

ومن أكبر السلبيات المنهجية لهذه النشأة السيئة هو أن انصرفت الجهود عن بناء علم إسلامي قائم بنفسه يتخصص في دراسة القضايا الفلسفية الكبرى؛ كقضية الوجود وأنواعها وأحكامها، وقضية المعرفة ومصادرها وطبيعتها ومنهجها، وقضية الإنسان وحقيقته وطبيعته، وقضية الأخلاق وأصولها، وقضية الكون وطبيعتها.

وأصبحت أكثر الجهود المبذولة متوجهة بشكل أساسي نحو إبطال مقالات الفلاسفة والسعي إلى تقويض مشروعهم، وأُهملت الدراسات البنائية التي تسعى إلى دراسة المخزون الفلسفي التي تضمنته النصوص الشرعية وتراث الصحابة ومن جاء بعدهم من علماء الإسلام، ولم تعطَ حقها من البحث والتنقيب والتحليل، واستمر الحال إلى عصرنا الحاضر، حتى أن بعض جامعاتنا حين توجهت إلى إقرار مادة تدرس الفلسفة قررت مادة على طلاب (البكالوريوس) و(الماجستير) و(الدكتوراه) بعنوان "نقد الفلسفة"، وكان الأولى -بل الأوجب- أن تقرر مادة تُعنى ببناء الرؤية الإسلامية حول قضايا الفلسفة وتحدد معالمها ورسومها، سواء سُميت بالفلسفة الإسلامية أم بغيرها؛ فالشباب المسلم الآن في حاجة ماسة إلى معرفة الرؤية الإسلامية المتكاملة عن تلك القضايا، أكثر من حاجته إلى معرفة ما في رؤى الآخرين من خلل منهجي ومعرفي.

ولابد من التأكيد على أن الحديث هنا هو عن تأسيس علم خاص يُعنى بدراسة القضايا الأساسية في المجال الفلسفي بناء على الرؤية الكلية لدين الإسلام، وليس المراد الحديث عن الكلام المتناثر هنا وهناك عن تلك القضايا؛ فهذا الكلام المتناثر قد وجد في كلام علماء الإسلام كثيرًا، ولكنه في النهاية لا يكون علمًا خاصًّا ولا رؤية محددة نستطيع بمجردها أن نخرجها للعالم وندافع بها المشاريع الأخرى.

الفلسفة الإسلامية بين الوجود والعدم:

أثيرت في العصر الحديث قضية شهيرة وهي هل هناك فلسفة إسلامية أم لا؟! وقد اختلفت فيها مواقف الباحثين كثيرًا؛ فمنهم من تبنى القول بأنه ليس هناك فلسفة إسلامية، وأن غاية ما وجد في المجال الإسلامي إنما هو نقل وترجمة حرفية عن الفلسفة اليونانية وغيرها، ومنهم من ذهب إلى إثبات وجود خاص للفلسفة الإسلامية، وإثبات أنها فلسفة نمت وترعرعت في أحضان الثقافة الإسلامية، واختلف أصحاب هذا الموقف في تحديد التسمية المناسبة لها؛ فمنهم من سماها الفلسفة الإسلامية، ومنهم من اختار أن يسميها الفلسفة العربية.

وقد استند أصحاب الموقف الثاني إلى مستندات عديدة، ومن أقوى مستنداتهم: الارتكاز إلى ما أنتجه الفلاسفة المشهورون في الفكر الإسلامي، ومن أشهرهم: الفارابي وابن سينا وابن رشد، بحجة أن ما أنتجه هؤلاء يمثل صورة الفلسفة الإسلامية.

وحتى نخرج في هذه القضية برؤية ناضجة ومقاربة للحقيقة فإنه لابد أن نفرق بين مستويين:

الأول: الحديث عن الفلسفة من حيث التصورات والمفاهيم؛ فلا شك أن هناك فلسفة إسلامية، ولا ريب أن دين الإسلام يتضمن مواقف خاصة به في القضايا الأساسية المكونة لعلم الفلسفة.

الثاني: الحديث عن الفلسفة كعلم مستقل وقائم بنفسه؛ فعلى هذا المستوى فما هو موجود في التاريخ الإسلامي لا يمثل الفلسفة الإسلامية ولا يعبر عن مضمونها وروحها ولا مسارها المعرفي.

فما يُعرف بعلم الفلسفة في التاريخ الإسلامي -وخاصة ما أنتجه الثلاثي الشهير: الفارابي وابن سينا وابن رشد- لا يصح جعله ممثلًا لحقيقة الفلسفة الإسلامية ولا معبرًا عن ماهية المخزون الفلسفي في النصوص الشرعية، ويدل على هذا ثلاثة أدلة، وهي:

الدليل الأول: أن أولئك النفر تبنوا نظريات كثيرة تخالف أصول الإسلام وتناقض مبادئه، وقد بلغت العشرات، ومن أشهرها: مسألة قِدَم العالم، ومسألة إنكار علم الله بالجزئيات، ومسألة إنكار بعث الله للأجساد، ومسألة إنكار الصفات الإلهية، ومسألة إنكار حقيقة النبوة.

وقد سعَوا جاهدين في أن يبينوا أن موقفهم ليس مخالفًا لحقيقة ما جاء به الإسلام، ولكن منتهى قولهم -حتى بعد التعديل والتوضيح- هو المناقضة لقطعيات الدين الظاهرة.

فإذا كان حال فلسفتهم كذلك، فكيف تكون ممثلة للفلسفة التي جاء بها الإسلام ومعبرة عن حقيقتها؟!



الدليل الثاني: أن أولئك الفلاسفة يعدون الشريعة متأخرة عن الفلسفة في منزلة العلم ويذهبون إلى أنها ليست طريقًا لبناء المعارف البرهانية؛ فالفارابي صرح بأن الشريعة متأخرة عن الفلسفة في منزلة العلوم التي تدعو إليها وفي طريقة بناء تصوراتها؛ لأنها تعتمد على التخييل والتقريب والتشبيه في بيان حقائقها ولا تعتمد على البرهان، ولأنها تتوجه من حيث الأصل إلى الجمهور بالأساليب التي تناسبهم ولا تخاطب الخاصة الذين هم الفلاسفة. [الحروف (133-131)]

وأما ابن سينا فإنه صرح بأن أمر الشرع "ينبغي أن يعمل فيه بقانون واحد وهو أن الشرع والملل الآتية على لسان نبي من الأنبياء يراد بها خطاب الجهور كافة"، وأكد على أن ما كان متوجهًا إلى الجهور فإنه يعتمد على الأساليب الخطابية التشبيهية التقريبية، ولهذا كان "التوحيد تشبيهًا كله" [الأضحوية، ص44].

وأما ابن رشد فإن موقفه يتصف بالغموض والتردد بين الاحتمالات، ولكن الذي يدل عليه مجمل كلامه أن الفلسفة لا تستمد من الدين وأن كثيرًا من ظواهر نصوص الشريعة لا تلزم الخاصة، وإنما يجب الأخذ بظواهرها على الجمهور والعامة فقط، وأكد على أن نصوص الشريعة إذا خالفت البرهان -قضايا الفلسفة- فإنه يجب تأويلها وصرفها عن ظاهرها. [فصل المقال (109/112)]

ومن خلال التحليل السابق فإنه يظهر بجلاء أن محصل ما ينتهي إليه موقف أولئك الفلاسفة أن الشريعة ليست مصدرًا من مصادر الفلسفة ولا هي منبعًا من منابعه؛ وإنما هي قرينة للفلسفة؛ بل هي متأخرة عنها، وأن الفلسفة صنو للشريعة وربما تؤول إذا وقعت المخالفة بينهما.

فإذا كان الأمر كذلك فكيف تكون تلك الفلسفة ممثلة لروح الفلسفة الإسلامية ومبينة لحقيقتها وهم يعدونها أعلى منها مقامًا وثبوتًا؟!

الدليل الثالث: تأكيدهم على أنهم متبعون لفلاسفة اليونان -وخاصة أرسطو- وعلى أن ما جاء عن أولئك الفلاسفة يمثل قمة النضج الفسلفي وأنصع صوره، وقد صرح الفارابي بأن "الفلسفة الموجودة اليوم عند العرب منقولة إليهم من اليونان". [الحروف، ص159].

وأما ابن سينا فإنه يرى أن أرسطو قد بلغ درجة من الفلسفة لم يصل إليها أحد قبله ولا بعده، وأنه "يحق على من بعده أن يلموا شعثه ويرموا ثلما يجدونه فيما بناه، ويفرعوا أصولًا أعطاها". [منطق المشرقيين، ص2]، وقد طبق ذلك بنفسه؛ فكان أنضج وآخر صورة قدمها من الفلسفة موافقة في جملتها لما جاء عن أرسطو مقتفيًا فيها أثره.

وأما ابن رشد فقد وصل إلى أقبح صورة يمكن أن يصل إليها المقلدون؛ فقد بالغ في اتباعه لمقالات أرسطو وأنفق فيها عمره، وبالغ في وصف أرسطو بالأوصاف العظيمة؛ حيث يقول: "ما أعجب شأن هذا الرجل وما أشد مباينة فطرته للفطر الإنسانية! حتى كأنه الذي أبرزته العناية الإلهية لتوقفنا معشر الناس على وجود الكمال الأقصى في النوع الإنساني". ويرى أنه ليس للبشر مجال إلا الاختلاف في فهم ما يراه فقط؛ فيقول: "أرسطو هو أصل كل فلسفة، ولا يمكن الاختلاف في غير تفسير أقواله، وفي النتائج التي تستخرج منها". [انظر في هذه المقالات وغيرها: الحد الأرسطي، لكاتب المقال، ص404]

وعلى تأكيد تبعية هؤلاء وغيرهم للفلسفة اليونانية تتابع عدد من المهتمين بالشأن الفسلفي في العالم الإسلامي، ومن أبرز هؤلاء ابن تيمية حيث يقول: "مذهب الفلاسفة الذين نصره الفارابي وابن سينا، وأمثالهما كالسهروردي المقتول على الزندقة وكأبي بكر بن الصائغ وابن رشد الحفيد هو مذهب المشائين أتباع أرسطو صاحب المنطق، وهو الذي يذكره الغزّالي في كتاب مقاصد الفلاسفة، وعليه ردَّ في التهافت". [الرد على المنطقيين، ص335]

ويقول الشهرستاني بعد أن سرد قائمة طويلة من المشتغلين بالفلسفة في التاريخ الإسلامي: "وإنما علامة القوم أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا قد سلكوا كلهم طريقة أرسطو في جميع ما ذهب إليه وانفرد به، سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي أفلاطون والمتقدمين". [الملل والنحل، ص490]

ويقول القفطي: "وأقرب الجماعة حالًا في تفهيم مقاصده في كلامه (أي أرسطو): الفارابي أبو نصر، وابن سينا، فإنهما دققا وحققا؛ فحملا علمه على الوجه المقصود، وأعذبا منه لوارده مهله المورود، ووافقاه على شيء من أصوله...". [إخبار العلماء، ص46]

فالكلام السابق يؤكد على أن أولئك النفر مقلدون من حيث الأصل لليونان في فلسفتهم ومتبعون لهم في نظرياتهم؛ فكيف يكونون مع ذلك ممثلين لروح الفلسفة الإسلامية معبرين عنها؟!

البحث الفلسفي والاختصاص الإسلامي:

من الأمور المميزة لعلم الفلسفة كثرة الاختلاف والتنوع بين مدارسه؛ فما من قضية من قضاياه الأساسية إلا وفيها أنواع من المقالات وأصناف من النظريات، وهذه حقيقة مؤكدة؛ حتى جعلها بعض الباحثين صفة ملازمة لعلم الفلسفة لا تنفك عنه.

ومن أقوى الأسباب التي كانت وراء ذلك: الاختلاف في المرجعيات الدينية والأصول، والتنوع في النظر إلى الأصول المنهجية التي تحكم المعرفة وتحدد مسارها، والتناقض في الغايات التي تروم كل مدرسة إلى تحقيقها، والأهداف التي تجتهد في بلوغها، ونتيجة لذلك خرج لنا ذلك الكم الهائل من المدارس والاتجاهات الفلسفية المتصارعة في تاريخ علم الفلسفة.

ولا شك أن الإسلام له أصول دينية خاصة تتعلق بنشأة الوجود وبدايته ونهايته تختلف عن الأصول الوثنية التي تقوم عليها جل المدارس الفلسفية المشهورة، وله نظرة إلى الكون وغايات وأهداف تختص به دون غيره من المناهج والتصورات الأخرى.

وهذه الاختصاصات المتعددة توجب بالضرورة أن تكون الفلسفة المنبثقة من الإسلام مختلفة عن غيرها من الفلسفات الأخرى، ومتميزة عنها في طبيعتها وموضوعاتها ومساراتها ومجالاتها وغاياتها.

ولكن الكلام السابق لا يعني أن الفلسفة الإسلامية ستكون منعزلة ومختلفة عن غيرها في كل شيء؛ وإنما غاية ما يعني أن الفلسفة الإسلامية لها قالب خاص بها وشخصية متميزة عن غيرها في معالمها وسماتها، وهذا لا ينفي أن تكون مشتركة مع من عداها من الفلسفات في عدد من القضايا؛ فالاتفاق مع الآخرين في بعض الأمور لا يعني بالضرورة فقدان الهوية وذوبان الشخصية.

كيف ننقب عن المخزون الفلسفي في الإسلام؟!

استخراج المخزون الفسلفي في الشريعة عمل شريف وعظيم، وهو مشروع ضخم يحتاج إلى أن تتكاثف الأيدي العاملة في الحقل البحثي الفلسفي في التنقيب عنه، وفي استخراج مواده وتصنيفها وتبويبها وتنسيقها، ولو أن نصف الجهود التي بذلت في تتبع الفلسفة الغربية ودراسة رجالها واتجاهاتها توجهت نحو المخزون الفلسفي في الإسلام لكنا قد وصلنا إلى مراحل متقدمة جدًّا في بناء هيكل الفلسفة الإسلامية، ولكن -وللأسف- أصيبت كثير من العقول الإسلامية بحالة من "هيستريا التبعية"؛ فأصبح انشغالهم بما يقوله الآخرون من خارج النطاق الإسلامي أكثر من انشغالهم بما لدينا من حقول في ديننا أو في تراثنا، وهي حقول ضخمة وغنية.

ومن الصعب جدًّا أن يقوم شخص واحد بالتنقيب عما في النصوص الشرعية والتراث الإسلامي من مواد فلسفية، فضلًا عن أن تختزل معالمها في مثل هذا المقال المختصر.

ولكن يمكننا أن نشير إلى أهم الخطوات العملية الأساسية التي تساعد على ذلك، ويمكن إجمالها في الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: رصد جميع النصوص الشرعية -الكتاب والسنة- التي دلت بالنص أو بالإشارة على أي نوع من المواد الفلسفية، وتحليلها ودراستها واستخراج مدلولها.

الخطوة الثانية: رصد جميع المقالات التي بناها علماء الإسلام والمدارس الإسلامية باختلافها؛ مما له تعلق بالجوانب الفلسفية وتصنيفها وتنسيقها.

الخطوة الثالثة: دراسة أهم الفروق بين تلك المدارس فيما طرحته من رؤيات مختلفة حول القضايا الفلسفية، وتحديد أهم التطورات المنهجية والتاريخية التي مرت بها، وهي بلا شك متفاوتة فيما بينها في قوة تلك الرؤى وفي قربها وبعدها من مدلولات النصوص الشرعية والأصول الكبرى التي قام عليها الإسلام.

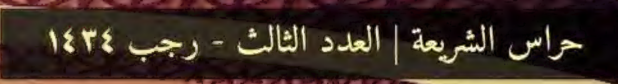
الخطوة الرابعة: دراسة العلاقة المنهجية والروحية بين المواد الفلسفية المكونة للرؤية الفلسفية في التراث الإسلامي؛ بحيث تدرس العلاقة بين نظرية الوجود مثلًا مع نظرية المعرفة مع نظرية الأخلاق مع نظرية الإنسان، واستخراج أوجه الترابط فيها والكشف عن الاتساق المعرفي والفلسفي بين مكوناتها.



فالرؤية الفسلفية في الإسلام ليست مجرد مفاهيم مبعثرة ولا هي مجرد تصورات مفككة؛ وإنما هي نسيج واحد وكيان مترابط ومتناسق الأجزاء، ومتداخل في مكوناته؛ فلا يكفي في بناء علم الحكمة الإسلامية أن نبرز تلك المفاهيم والتصورات بشكل مبعثر ومفكك؛ وإنما لابد لنا من الكشف عما بين تلك المكونات من انسجام وترابط.

الخطوة الخامسة: ثم بعد ذلك كله نتوجه نحو المنتج الفلسفي الذي أفرزته المدارس الفلسفية الأخرى لنقوم بالمقارنة بينها وبين ما استُخرج من المخزون الإسلامي، وإبراز الامتيازات التي اتصفت بها الحكمة -الفلسفة- الإسلامية عن غيرها في النظرة إلى الوجود وإلى المعرفة وإلى الأخلاق وإلى الإنسان.

وفي ختام هذه الورقة لابد من التأكيد على أن الدعوة إلى التوجه نحو المخزون الفلسفي في الإسلام لا تعني الدعوة إلى الانعزال الفلسفي عن العالم، ولا أن نحكم على كل ما عند الآخرين بالخطأ بمجرد أنه ليس نابعًا الإسلام، ولا أن نسد الأبواب للاستفادة مما عندهم مما لا يخالف الإسلام، وإنما غاية ما يعني أن نبني أولًا جزءًا من التصور الإسلامي ما زال يحتاج إلى بناء، وأن نسعى إلى تحقيق هويتنا والحفاظ على قالبنا الخاص بنا، ثم بعد ذلك نلتفت إلى ما عند الآخرين.



بين ربوع معرفته وحدائق معاملته

محمد علي يوسف

أم تُلقي وليدها في بحر متلاطم الأمواج؟! رجل يرحب بالسجن والأسر إن كان في غير معصية الله! شيخ هرم واهن العظم مشتعل الرأس يطلب الذرية! والد يمسك سكينًا ويُقدم على ذبح ولده والولد يرحب! شاب يقف وحده في مواجهة أعتى دولة على الأرض ويقول كيدوني جميعًا ثم لا تُنظرون! رجل مسن يبني سفينة في عرض الصحراء دون أن يأبه بسخرية الساخرين!

أوتعجب لفعلهم؟! أفتستغرب لقولهم؟! أتتساءل عن أحوالهم؟! أتتوق لمآلهم وتستفسر عن سبيلهم؟!

إنهم فقط أناس قد عرفوا ربهم؛ لكنها ليست معرفة سطحية أو عادية، ليست مجرد علم نظري جامد، إنها حياة كاملة متكاملة مع الله، حياة ازدهرت بها واحات قلوبهم، وأينعت فيها ثمرات يقينهم، ودنت عليها ظلال توكلهم؛ فكانت تلك الأعاجيب، وكان ربهم بهم حفيًّا، وما كان أحدهم بدعائه شقيًّا.

وكذلك معرفة الله إذا خالطت بشاشتها القوب وعاينت بهجتها النفوس ولاطفت نسماتها الأرواح؛ فمن عرف الله حق المعرفة وأحصى أسماءه وصفاته ومننه وآلاءه وأحبه وامتلأت نفسه بتعظيمه وإجلاله =فإن قلبه يفيض بتلك المعرفة والمحبة والتعظيم

وإن المحب إذا سُئل عن حبيبه فإنه يبدع في الكلام عنه حتى وإن كان اللسان معقودًا والبيان كليلًا؛ فإن محبته تظهر وصدقه يصل ورسالته تجد طريقها إلى القلوب، وما كان من القلب وصل إلى القلب، وليست النائحة الثكلى أبدًا كتلك المستأجرة.

ومن عرف ربه فإنه يتقلب في حدائق الاطمئنان بذكره ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28]، ويستظل بوارف أشجار التوكل عليه وهو يردد ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: 51] وهو يتنعم بنسيم اليقين فيما عنده ويثق ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: 16]، وإنه على علمه هذا يخشاه ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: 28]، ويوجل لذكره؛ فهو ممن قيل فيهم﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: 2]؛ لكنه ما إن يتذكر واسع فضله وجنات جوده وغيث إحسانه حتى يسارع إلى رحابه ويعجل إلى خلوة به مرددًا قول الكليم عليه السلام: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: 84]

لكن البداية أن يعرف، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف؛ يقول ابن القيم رحمه الله: "ولا سعادة للعباد ولا صلاح لهم ولا نعيم إلا بأن يعرفوا ربهم ويكون وحده غاية مطلوبهم، والتعرف إليه قرة عيونهم، ومتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالًا من الأنعام، وكانت الأنعام أطيب عيشًا منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل".

وما من قربى ولا مقام من مقامات الدين إلا وينال كمالها بمعرفة الله والعلم بأسمائه وصفاته؛ فمن عرف الرقيب الحسيب العليم الخبير حق المعرفة أدرك مقام الإحسان، ومن علم معنى الجبار القهار العزيز ذي انتقام رزق الخشية والخوف والإخبات والوجل، ومن تشرب قلبه معاني الرحمة والمودة لم يخل ذلك القلب من رجاء ومحبة، ومن علم أنه يقبل التوبة عن عباده ويغفر السيئات آب وأناب وتاب إليه واستغفره، ومن سمع أنه قريب يجيب دعوة الداعي وضراعة المضطر لم يعجز أن يرفع إليه يديه ويسأله من جوده وفضله، ومن عرف غناه افتقر إليه واستغنى به وطلب منه وحده المثوبة واستوى عنده مدح الناس وذمهم، ومن علم بقوته اعتمد وتوكل عليه، ومن ذكر جماله اشتاق للذة النظر إليه، وإن مقام الشوق إلى لقائه لا يتأتى إلا لمن عرفه حق المعرفة؛ فلا يعقل أن يشتاق المرء وتهفو نفسه للقاء من لا يعرف عنه شيئًا، أما من يعرف فإنه يتوق ومن ثم يسارع وقلبه يصيح بقول الكليم عليه السلام: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: 84]



يقول ابن القيم رحمه الله: "من عرف الله اشتاق إليه، وإذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوق العارف لا نهاية له" وكما أن محبة الله مقترنة بمعرفته ملازمة لها فإن الغيرة لا تنفك عن المحبة، والمحب يغار وغَيرته تلك علامة حبه، وبذلك نفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن مشاعر المؤمن تجاه حرمات الله: "إن المؤمن يغار والله أشد غيرة، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه". فهو يحب عبده ويغار أن يلقى عبده بنفسه في حبائل عدوه.

ومن علم أنه الواحد الأحد الصمد أخلص وجهته له وحده فلا تأوي النفس إلا إليه، ولا ترغب إلا فيه، ولا ترهب إلا إياه، ولا يكاد القلب يشهد إلا آثار أفعاله وتجليات أسمائه وصفاته، ولعل ذلك الدعاء الجامع للنبي صلى الله عليه وسلم حين تعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته وبه منه يعد تجسيدًا واقعيًّا لتلك الحالة من توحيد الوجهة بشكل مطلق، وكأني به صلوات ربي وسلامه عليه لا يرى في الكون سوى معاملة معه وعلاقة به أورثت بالقلب واللسان كمال الالتجاء وصدق التعلق وتمام الرغبة والرهبة، تلاها ذلكم الثناء المهيب: "لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك".

فإن من عرف الله حق المعرفة ينظر إلى كل ما يمر به من أمور الدنيا والدين من خلال منظور المعاملة معه؛ فالفضل والنعماء منه وإليه، والابتلاء اختبار عليه أن يحسن الأداء فيه ليرى الله منه خيرًا، والأمر والنهي والحلال والحرام هي امتحانات شرعية عملية عليه أن يجتازها، والعارف لا ينسى أو يغفل عن معاملة الله له في أي مقام.

انظر إلى زكريا عليه السلام حين طلب الذرية وقد وهن العظم واشتعل الرأس شيبًا وعقمت المرأة، إن ذلك لم يكن بمعزل عن معاملة تعودها زكريا فقال مسترجعًا إياها ﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: 4].

وإبراهيم عليه السلام حين جادل أباه وقومه لم ينس المعاملة الربانية فقال مذكرًا بها ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم: 47]، وحين قرر اعتزالهم وهجرانهم لم يغفل عن أمله فيمن كان به حفيًا؛ فقال: ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم: 48]. وكذلك فعلت امرأته حين علمت أن من أمره بتركها ووليدها في الصحراء هو الله جل وعلا فقالت: "إذا لا يضيعنا".

وما أحسن قول تلك الفتاة العارفة ابنة حاتم الأصم حين رأت رفع البلاء عنهم وغناهم بعد فاقة أصابتهم لمجرد أن أميرًا من الأمراء قد مر عليهم فأحسن إليهم وأجزل لهم العطايا؛ فقالت باكية: "مخلوق نظر إلينا فاستغنينا وشكرنا، فكيف لو نظر إلينا الخالق".



إن معرفة الله إذا استقرت فى قلب عبد فإنها تهز -بل تزلزل- كل تصوراته الخاطئة ونظراته القاصرة؛ فتسقط كافة أوثان النفس لتخر متهدمة على أنقاض سوء الظن والتعلق بالخلق، وكما رجف المنبر برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما تحدث عن الملك حتى قالوا ليخرن به؛ فإن قلب المؤمن وحياته وتصوراته ونظراته للأمور ترجف وتهتز وتنقلب رأسًا على عقب حين يعرف الله حق المعرفة؛ فيرى الأمور بقيمتها الحقيقية ويزن الدنيا وما عليها بميزان المعرفة، معرفة الله.

وهذا ما حدث حين عرف السحرة مولاهم الحق فتكشفت لهم تلك القيمة الحقيقية للأشياء، وبدت لهم المعايير الصحيحة؛ فما ترددوا فى الاختيار بين الدنيا وما عند الله، وقالوا لمن هددهم: ﴿ الُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه: 72]

وهذه من أزكى ثمرات المعرفة وأشهى قطوف العلم بالله؛ أن يستقيم الميزان وتبدو الدنيا بزينتها رخيصة إن وضعت فى مواجهة مع إرضاء الله وما عنده، حينئذ يرتفع الشعار عاليًا خفاقًا نقيًّا رقراقًا يردده العارفون: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: 73] و يُنظر عندها إلى كل تهديد وتخويف بمنطق: ﴿ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: 50]

فمن عرف الله حق المعرفة سهل عليه التعامل مع الخلق، وأضحت صلتهم يسيرة والصبر على أذاهم هينًا؛ فإنه يتذكر حين يعاملهم ويحسن إليهم أنه لا يكافئهم -فليس الواصل بالمكافئ- ولكنه يعامل ربه وربهم، ويتعبد إليه بالإحسان إليهم، والصبر على أذاهم، وحينئذ يكون حرصه الأوحد على أن يُري الله منه خيرًا في كل حال.

والقلب الذى تشرب العلم بالله ومعرفة أسمائه وصفاته ونعمه وآلائه لا يحتمل أن يمكث طويلًا تحت وطأة المعاصي، أو يطول عليه الأمد فى رجس الخطيئة؛ فما أن يُذَكَّر بمولاه حتى يسارع للاستغفار والتوبة والأوبة إلى رحابه؛ لأنه يعلم جيدًا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو؛ فيكون ممن قال الله فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 135] .. ولربما بلغ درجة أعلى من ذلك كما حدث مع يوسف عليه السلام إذ يقول:﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: 33]؛ فحسن أن يتمنى المرء ألا يعصي الله، وأن يبغض المعصية وينفر قلبه منها فذاك أحسن، وأن يتحمل الأذى ويصبر عليه لئلا يقع فى الفاحشة فتلك درجة عالية رفيعة؛ لكن أن يصل به تعظيمه لحرمات مولاه لأن يكون الأذى والعذاب الدنيوي أحب إلى قلبه من المعصية فهذا مقام من تشرب قلبه بمعرفة ربه، معرفة أسفرت عن محبة صادقة وتعظيم خالص يجعله لا يطيق إغضابه والتعدي على حرماته، معرفة جعلت أي مكان لا يعصى فيه الله أهون عليه من محل المعصية ولو كان قعر سجن بارد مظلم.

ببساطة:

لو عرفته حق المعرفة لأحببته، ولامتلأ قلبك بالشوق إليه، ولامتلأت نفسك بخشيته وإجلاله وتعظيم أمره، ولتاق فؤادك إلى قربه والأنس بلقائه، ولزهدت روحك في كل شيء إلا قربه، ولهان عليك كل شيء في سبيل إرضائه، فقط لو.. عرفته.



المحزن أنك تجد كثيرًا من الناس يعرفون عن كل شيء؛ لكن إذا جاء الأمر لذلك النوع من المعرفة تجد المأساة؛ لو فتح موضوع عن السياسة تجده ينطلق، ينقلب الكلام عن كرة القدم تجده وكأنه المدرب العالمي والحكم الدولي والخبير الرياضي؛ فتنتقل به إلى السيارات و(موديلاتها) فلا يمانع؛ في الفن فهامة، وفي الطب علامة، وفي (الموضة) أستاذ وأستاذة؛ لكن لو احتاج لأن يتكلم عن ربه ولو لدقائق، أو طُلب منه أن يعرف أحدًا على مولاه فلربما لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة. ذلك لأنه عايَش كل ما سبق فعرفه وفهم عنه، وصدق من قال: "المعايشة أساس الفهم".

إن التعرف على الله مهمة حياة وإن كل لحظة تنفقها من عمرك لتتعلم عن ربك وتتعرف عليه بأسمائه وصفاته لهي لحظة غالية نفيسة، لن تكون حياتك بعدها مثل حياتك قبلها، وإن أعظم ما تتعرف به على ربك هو كلامه، ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: 14] **هل جربت يومًا أن تقرأ كتاب ربك بهذه النية وبذلك الهدف؟**

إن أعظم ما تتعرف به على الله جل وعلا كلامه هو عن نفسه، ثم كلام عباده المقربين العارفين به عنه، ثم كتابه المنظور من حولك والذي تتجلى فيه آثار قدرته ورحمته وسائر صفات الجلال والجمال والكمال التى يتصف بها، ثم من خلال معاملته لك أنت شخصيًّا؛ فمن خلال كلامه عن نفسه في كتابه المنزل وأحاديثه القدسية تستطيع أن تتعرف على أسمائه وصفاته، والقرآن الكريم هو أعظم كتاب اعتقاد موجود بين أيدينا؛ فلا تكاد تخلو سورة أو آية فيه من ذكر لله، أو حديث عن اسم من أسمائه أو صفة من صفاته، ولا يوجد مخلوق يحيط علمًا بالله جل وعلا؛ لذا فأعظم ما تستمد منه معرفتك هو كلامه عن نفسه، وأيضًا تتعرف عليه من خلال كلام نبيه صلى الله عليه وسلم وأحاديثه الصحيحة التى يكلمك فيها عن الله جل شأنه ويثني عليه ويحمده ويقدسه، وتستطيع أن تتعرف على الله كذلك من خلال كلام العلماء العارفين الذين أفنوا أعمارهم في التعرف على الله والتعلم عنه، وأيضًا من خلال التدبر في الكون والنظر في ملكوت السماوات والأرض والتأمل في آثار رحمة الله في الخلق؛ حيث تستطيع أن ترى تجليات الصفات في هذا الكون السرمدي البديع، وكذلك من خلال معاملته لك في سائر حياتك ونعمه الظاهرة والباطنة التي حين تتذكرها وتتأملها تتعرف عليه تعرفًا عمليًّا.

أكرر:

إن التعرف على الله مهمة حياة، وليست فقط كتاب يقرأ أو مسألة تدرس؛ ولكنها رحلة تحتاج إلى إرادة حقيقية وصادقة من المرء لكي يسلك سبيلها وينال تلك المعرفة؛ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "أي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة، وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله، والعمل بمرضاته، ومعرفة الطريق الموصلة إليه، وما له بعد الوصول إليه؟".

وإن نقص العلم بالله قد يورث سوء الظن به، وفساد الظن به مهلك؛ ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: 23] وإن أقوامًا لم يعرفوه حق المعرفة فظنوا به غير الحق ظن الجاهلية وما قدروه حق قدره ولا ارتجوا له وقارًا فكان عاقبة أمرهم خسرانًا في الدنيا؛ بأن شُغلوا بأنفسهم وحسبوا كل صيحة عليهم وفي الآخرة: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: 24] يقول ابن القيم: "فالعلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح؛ فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته".

وأشد الجهالة هي الجهالة بمقام الله، وهي إن وُجدت وُجد معها العصيان والاجتراء على الحرمات، وقد يعذر المسلم بجهله لحكم خفي عنه أو نقص علمه بحرمة حرام أو منكر منهي عنه؛ لكن الجهل بالمقام الإلهي أمر مختلف فعنه شرعت التوبة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ ، وأمر بالتعجيل بها في قوله: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 17]

وتمام تلك التوبة يكون بإصلاح ذلك الجهل بالله، والتعلم عنه وحسن معرفته وتعظيم مقامه في القلب؛ لعل من يفعل ذلك يجد شيئًا من نسمات تلك المعرفة التي تجولنا في حدائقها وطفنا بين ربوعها؛ فينال بذلك جنة الدنيا والآخرة، وما ذلك على الله بعزيز.

استفت قلبك

خالد بهاء الدين الأزهري



أحمدُ الله عزَّ وجل، وأسبح بحمده، وأصلّي وأسلّم على نبيّه وعبده، وآله وصحبه مِن بعده، وبعد:

فإنَّ الغرضَ الأوحد مِن بعث الرسل وقانون الشرع هو: إخراجُ الإنسان من داعية الهوى، وأسرِ العبوديّة لغير الربِّ تبارك وتعالى، إلى حريّة التوحيد والاتباع، ولذلك بعث اللهُ الرسل، وأحكم الكلام، وبيّن الحلال من الحرام.

ولا شكَّ أن قضايا: «الاجتهاد»، و«التقليد»، و«الإجماع»، و«الخلاف»، ونحوها؛ تعدّ مِن القضايا التي أخذتْ مساحةً مِن الجدل الفقهيّ والأصوليّ - المحمود تارة وغيرِ المحمود أخرى - لدى شريحة تعدّ واسعةً مِن المتشرّعة مِن العلماء، ثم مِن طلبة العلم على مدار العصور المختلفة؛ لا سيّما المتأخرة.

والجميع متّفقون: أنّ المراد مِن جميع البشر في جميع الأحوال هو اتباعُ مواطن الأمر والنهي، بأن يوافِق المأمورَ عملًا، ويتجنّب المنهيّ تركًا، علمًا وحالًا، وهذا هو كلُّ الإيمان المطلوب بلا مثنوية، وهو جميعُ القول والعمل، ثم حصل الخلافُ بعد ذلك في معنى بعضِ هذا المأمور به أو المنهيّ عنه، ومناطِهما، ولا شكّ أنّ الناس في احتياجٍ دائم إلى أمرين:

الأول العلم بالأمر والنهي، وفقه معناه، وبكيفية العمل به.

الثاني تحقيق العمل به.

ثم الأحكام الشرعية: إما أن تكون واضحةً ظاهرةً لكلِّ واحد، فحينئذ لا يجوز فيها اجتهادٌ، ولا يسوغ طلبُ تقليدٍ، ولا يحلّ ترك هذا الواضح الجليّ لقول بشر بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم، كان مَن كان، كالأصولِ المعلومة مِن الدين بالضرورة، والنصوصِ الواضحةِ الجليّة، التي لا يُختلف في تأويلها ومعرفةِ معانيها. وإما أن تكون مِن دقيق المسائل، أو مِن التفاصيل التي تخفى عادةً، أو يَختلف العلمُ بها باختلاف القُطر أو الزمان، سواء كانت مما يُختلف في تأويله أو لا، أو: قد تكون مما يخفى كيفُ امتثاله مِن الأوامر والنّواهي، فيجب على مَن لا يمكنه معرفةُ مراد الله ورسوله حينئذ: الالتجاءُ إلى مَن يدلّه على موطن الأمر والنهي، وكيفية الامتثال له، من العالِمين به.

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: «قد يكون معنى النصّ بيّنًا جليًّا، فلا تَختلف الأمّة في تأويله، وإن وقع الخلافُ في حكمه - لخفائه على مَن لم يبلغه، أو لقيام معارِضٍ عندَه، أو لنسيانه -: فهذا يُعذَر فيه المخالِف، إذا كان قصدَه اتباعُ الحقّ، ويثيبُه الله على قصده، وأمّا مَن بلغَه النصُّ، وذكرَه، ولم يقُم عنده ما يعارضُه: فإنّه لا يسعُه مخالفتُه، ولا يُعذَر عند الله بتركِه لقول أحدٍ كائنًا مَن كان. وقد تكون دلالة اللّفظ غيرُ جليّة، فيَشتبه المرادُ به بغيره؛ فهنا معترَك النّزاع بين أهلِ الاجتهاد في تأويله» اهـ [الصواعق (1/ 207)].

فكلّ امرئٍ بين هاتين الحالين في كلّ أحيانه، لا ثالثة لهما:

1- إما عالم بمراد الله وحكمِه، فاهمٌ لموطن الأمر والنهي في المسألة المخصوصة محلِّ العلم أو العمل؛ وسواء في ذلك أن يكون حصّلَ العلمَ:

* مضطرًّا إليه؛ بشرط الإسلام وحده، أو: مِن النصّ، بنفسه، لكونه جليّ المعنى، بيّنًا، واضحًا، شائعًا، إلى حدّ عدم خفائه على أحد، وعدم الاختلاف فيه؛ وذلك كالعلم بالوحدانية، أو بوجوب الصلاة والصيام، أو حلّ البيع، أو حرمة الزنا، أو مشروعية النكاح، أو أداء أربع ركعات في الظهر والعصر والعشاء، أو أنّ وقت الإمساك عن المفطرات وجوبًا في رمضان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، إلى آخره من البيّن المجمع عليه من الأحكام، الذي لا يَختلف أحد من الأمّة في العلم أو العمل به خلافًا يُعتبر، إلا في أحوالٍ مستثناة نادرة، يُغتفر فيها الجهل ببعض ما ذُكر، ولا تؤثّر على هذا الحكم الكليّ.

* أو يكون عالمًا بحكم الله لا اضطرارًا، ولا لجلاء الحكم واشتهار النص لكلّ أحد، بل؛ لكونه ذا حظٍّ من المعرفة المخصوصة بالمسألة المخصوصة، لمزيد علم واطّلاع على النصوص ومواضع الاتفاق على معانيها وأحكامها، فهو مما اتُّفق عليه، لورودِ النصّ قطعيًّا في الدلالة عليه، أو حصولِ الإجماع على الحكم، كعلمِه بأنّ حدّ القذفِ ثمانون، وأنّ السارق تُقطعُ يمناه في أول مرة، وأنّ السهو بترك التشهُّد الأوسط لا يُبطل الصلاة، وأن الدّم المسفوح نجِسٌ، وأن مُجامِع زوجتِه في نهار رمضان يلزمه كذا وكذا.

فحينئذ؛ يجب عليه العملُ بمقتضى علمِه دون الحاجة إلى من يفتيه فيه؛ بل لا يسوغ في النوعين جميعًا -هذا والذي قبله- التقليدُ، كما لا يسوغ الاجتهادُ، والعالم بهذه الأحكام إن أخبرَ الجاهل بها؛ فإنه يُخبره لا بوصفه مجتهدًا مفتيًا -وإن كان مجتهدًا في نفس الأمر-؛ بل يخبره بوصفه ناقلًا مبلِّغًا فحسب؛ فإنه لا اجتهادَ في موارد النصوصِ ومواطنِ الإجماع المستقرّ كما هو معلوم.

* أو يكون عالمًا بالمختلَف فيه من الأحكام، عالمًا بمختلِف الأقوال، وأدلة كلٍّ، مع أدواتٍ تؤهّله للترجيح بين هذه المتخالفات؛ فهذا هو العالم الفقيه، أو المجتهد، يعمل بعلمه، ويعلّمه غيرَه.

2- وإما جاهل بحكم الله في المسألة المخصوصة، علمًا أو عملًا، غيرُ محصّل لأدوات الترجيح أو الاجتهاد، فحينئذ؛ يجب عليه سؤال من يَعلم.

ثم المجيبُ: إمّا أن يجيبَه بالإخبار المجرّد، والنقلِ الخالص، لحكم مستقرّ لا يسوغ فيه اجتهاد ولا تقليد كما سبق، أو يُعمِلَ أدوات الاجتهاد للاستنباط، فيما يسوغ فيه الاجتهاد، أو الترجيح بين الأقوال المختلفة، أو لتحقيق مناط الحكم في محلّ السؤال، وحينئذ؛ فيُشترط فيه ما يذكره أهلُ العلم من شروطٍ في المفتي والمجتهد.

ثم هذا المسئول، الذي هو «المفتي» و«المجتهد»، متفَق على أنه غيرُ معصومٍ، فهو بشرٌ كسائرِهم، يعرِض له ما يعرِض لعامّتهم، مِن سوء القصد، أو الهوى، أو التشهّي، أو التعجّل، أو عدم الإلمام الكافي بأدوات الاجتهاد في المسألة المخصوصة، أو غياب بعض التصورات المؤثرة في محلّ البحث، أو غير ذلك.

وفيما عدا سوء القصد المتعمّد، وتغليب الهوى، والتشهّي المقصود، وعدم استفراغ الوسع؛ فإنّ المجتهد المخطئ معذور مأجور، كما هو معلوم مذكور، وإن لم يُصب سوى أجرٍ واحدٍ، بخلاف المتلاعب أو المتشهّي، فإنه لا يحصّل سوى الآثام والأوزار، «فلا يجوز العملُ والإفتاء في دين الله بالتشهي، والتخيّر، وموافقة الغرض؛ فيَطلبُ القولَ الذي يوافق غرضَه، وغرضَ مَن يحابيه، فيعملُ به، ويُفتي به، ويَحكم به، ويَحكم على عدوّه ويفتيه بضدّه، وهذا من أفسق الفسوق، وأكبر الكبائر» [أعلام الموقعين، (6/124)].

والمستفتون أيضًا؛ ليسوا على نوع واحد مِن إرادة الحق، وصدق طلب حكم الله لاتباعه، مجرّدًا عن الهوى والتشهّي، وإرادة الدنيا، والتلاعب، كما أنهم ليسوا على قدرٍ واحدٍ مِن الجهل بنصوص الشرع وأحكام الدين، واختلاف العلماء وفتاويهم، وينبني عليه عدم تماثل إذعانهم وتسليمهم للفتوى، فبعضهم يقبَلها بلا أدنى ارتياب، وبعضهم يحصُل في نفسه من التردد والوهم ما لا ينبغي التعويل عليه، فلا يمنعنّه شيء مِن ذلك مِن العمل بالفتوى، وبعضهم يقوى الظنُّ عندَه والتشكّكُ حتى لا تطمئنّ نفسه إلى الفتوى، ويحتار!

ولا يخلو سببُ كلِّ ذلك مِن داعي الشهوة تارةً، أو التقوى - فيما يظنّ هو- أخرى، ثم داعي التقوى: قد يكون مستنِدًا إلى سببٍ صحيحٍ يعارِض الفتوى، أو لا يكون له سببٌ سوى الجهلِ بما بنى عليه المفتي فتواه، بسيطًا كان أو مركّبًا، وسواء في ذلك أن يكون متفطّنًا إلى ذلك أو غيرَ شاعر به!

ولأنَّ الجاهل لا طريق له لامتثال الشرع سوى مسألة أهل العلم؛ فقد أوجب العلماء عليه امتثالَ فتوى المفتي، على تفاصيلَ يذكرونها في وقت إيجاب ذلك عليه، وشرطِه، دون اعتبارٍ لما يحصُل في نفسه مِن ارتياب وظنّ بداعي الجهل أو التشهي، أو زعمِ التقوى والاحتياط.

لكنّ كلامهم لا يخلو مِن اعتبار ما يقع في نفس المستفتي مِن ارتيابٍ في الفتوى أحيانًا، أو عدمِ اطمئنان قلبه للمفتي، وما يشرع له حينئذٍ؛ بل لا يخلو كلامهم من اشتراط سكون نفسه للمفتي أو الفتوى أحيانًا، وإلا فلا يكفيه، فلا يجيزون له -حينئذ- العملَ بالفتوى بمجرّد تحصيل الاطمئنان بأحدهما دون الآخر.

قال الإمام الأصوليّ الفذّ ابنُ قيّمِ الجوزيّة رحمه الله: «لا يجوزُ العملُ بمجرّد فتوى المفتي إذا: لم تطمئنَّ نفسُه، وحاك في صدره من قبوله، وتردّد فيها، لقوله -صلى الله عليه وسلم- "استفتِ نفسَك وإن أفتاك الناس وأفتوك". فيجبُ عليه أن يستفتيَ نفسَه أولًا، ولا تخلّصُه فتوى المفتي مِن الله إذا كان يَعلم أنّ الأمرَ في البَاطن بخلاف ما أفتاه، كما لا ينفعُه قضاء القاضي له بذلك، كما قال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: "مَن قضَيتُ له بشيءٍ مِن حق أخيه؛ فلا يأخذْه فإنما أقطَع له قطعةً مِن نارٍ". والمفتي والقاضي في هذا سواء.

ولا يظنّ المستفتي أنّ مجرّد فتوى الفقيه تبيح له ما سأل عنه إذا كان:

* يعلم أنّ الأمر بخلافِه في الباطن، سواء تردّد أو حاكَ في صدره: لعلمِه بالحال في الباطن، أو لشكّه فيه، أو لجهله به.

* أو: لعلمه جهلَ المفتي، أو محاباتَه في فتواه، أو عدمَ تقيّده بالكتاب والسنّة، أو: لأنه معروف بالفتوى بالحيَل والرخَص المخالفةِ للسنّة، وغيرِ ذلك من الأسباب المانعة من الثقة بفتواه وسكون النفس إليها.

فإن كان عدم الثقة والطمأنينة لأجل المفتي: يسأل ثانيًا، وثالثًا، حتى تَحصل له الطّمأنينة، فإن لم يجد: فلا يكلّف الله نفسًا إلا وُسعها، والواجبُ تقوى الله بحسب الاستطاعة»، [أعلام الموقعين: 4/195].

فيلاحظ أنَّ كلامَ ابن القيّم -رحمه الله- يتضمّن أربعة عوارض، كلّها مانعة مِن صحة العمل بالفتوى، اثنان يتعلّقان بالمستفتي، ومثلهما بالمفتي، فإذا وجُد أحدها: لا يجوز للمستفتي العملُ بالفتوى، ولا تبرأ ذمّته إن فعل.

فما يتعلق بالمستفتي:

* علمُه أنّ مناط الفتوى لم يتحقّق، بسببِ تلاعبِه وإخفائه على المفتي ما يَعلم أنّه مؤثّر في تحقيق المناط، وفاعلُه في حقيقة الأمر لم يمتثل الأمرَ بسؤال أهل العلم، ولا يرتفعُ التكليفُ عنه بما جَنى، وإنما تُنجِيه الفتوى إذا أوضَح مسألتَه بلا تلبيس ولا تعمية!

* والثاني مما يتعلّق بالمستفتي: شكُّه وارتيابُه وجهله بتحقّيق المفتي المناط، لا لتلاعبه وتلبيسِه عليه، ولكنْ لنحو أن يغلِب على ظنّه أن المفتيَ لم يفهم سؤالَه، أو أنّه لم يستطع أن يوصِل مرادَه إليه، أو ظنّه أنّ المفتي ترك الاستفصالَ عن بعض ما يؤثّر في الفتوى، فهذا الذي يحال على ما في قلبه من خطرات، ويوجَّه لاتّقاء المشتبهات، ويؤمَر بأن يدعَ ما يَريبه!

وقد ذكر الشاطبيُّ -رحمه الله- هذا الثاني بشيءٍ من التفصيل، إذ قال: « ... وهذا المناط محتاجٌ إلى دليل شرعيّ يبيّن حكمَه، وهي تلك الأحاديثُ المتقدِّمةُ، كقوله: "دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك". وقولِه: "البرّ ما اطمأنّت إليه النفس، والإثم ما حاك في صدرك". كأنه يقول إذا اعتبرنا باصطلاحنا: ما تحقّقتَ مناطَه في الحلّيَة أو الحرمة: فالحكم فيه مِن الشرع بيّنٌ، وما أشكَلَ عليك تحقيقُه فاتركه، وإياك والتلبّس به.

وهو معنى قولِه -إن صحَّ- "استفت قلبَك، وإن أفتَوك". فإنّ تحقيقَك لمناط مسألتِك: أخصُّ بك مِن تحقيقِ غيرك له إذا كان مثلك، ويظهر ذلك: فيما إذا أشكل عليك المناطُ، ولم يشكل على غيرِك لأنه لم يعرِض له ما عرض لك، وليس المرادُ بقوله: "وإن أفتَوك" أي: إن نقلوا إليك الحكمَ الشرعيَّ فاتركه وانظر ما يفتيك به قلبُكَ! فإنّ هذا باطلٌ وتقوّلٌ على التشريع الحقّ، وإنما المراد: ما يرجعُ إلى تحقيق المناط».اهـ [الاعتصام (3/ 85) ت. الصيني].

ويمكن التمثيل لذلك: بتحقيق المرأة لدم الحيض، وتحقيق المريض للعجز والمشقّة، ونحوِ ذلك.

وأما ما يتعلّق بالمفتي في كلام ابن القيم: فأن يكون جاهلًا، أو: متلاعبًا، وفي الحالين ينبغي أن يعيدَ المستفتي سؤالَه، لغيره، حتى يحصل له الاطمئنانُ وسكونُ النفس إلى علمِ المفتي وديانتِه، وإلا فلا يكفيه، ونحوُه ما في رعاية الحنابلة: «ولا يكفيه مَن لم تسكن نفسُه إليه، فلا بدّ مِن سكون النفس والطمأنينة به» اهـ [شرح الكوكب المنير (4/ 574)].

فظهر بذلك -وما تركتُه لضيق المقام أكثر- اعتبارُ العلماء بعضَ الشكّ والارتياب الواقعَين في قلب المستفتي، وأنّ هذا الشكَّ والارتياب المعتبَر، يتّصل سببُه بالمفتي تارةً، وبالفتوى أخرى.

ولعلّ ذلك مِن أسباب إيجاب بعضِهم على المفتي أن يبيّن مأخَذ الفتوى للسائل إن سأله، ما لم يكن خفيًّا في بيانه مشقة. [مثالًا: البحر المحيط (8/ 364)، الآيات البينات (4/ 375)].

وظهر أيضًا: أنّ مِن أهم النصوص المعتمَد عليها في تحصيل المطلوب وتأصيله؛ قولَ النبيّ -صلى الله عـليه وسلم- لوابصة بن مَعبَد: «استفتِ قلبَك، البرّ ما اطمأنّتْ إليه النفسُ، واطمأنّ إليه القلبُ، والإثم ما حاكَ في النفس، وتردّد في الصَّدر، وإن أفتاك النّاس وأفتَوك». وقولَه في حديث النوّاس بن سمعان الذي أخرجه مسلم: «الإثم ما حاك في نفسِك». وقولَه: «إذا حاك في صدرك شيء فدعه». [أخرجه أحمد، وصحّحه على شرط مسلمٍ الحافظُ المتقن ابن رجب الحنبليّ] وقولَه لأبي ثعلبة الخشنيّ: «الإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئنّ إليه القلب». [أخرجه أحمد وجوّد إسناده ابن رجب أيضًا].

نعم؛ قال الإمام الغزّاليُّ -رحمه الله-: «وحيث قضينا باستفتاء القلب، أردنا به: حيث أباح المفتي، أمّا حيث حرّمه فيجبُ الامتناع، ثم لا يعوّل على كلِّ قلبٍ، فرُبّ موَسوَس يَنفر عن كلِّ شيء، وربَّ شرهٍ متساهلٍ يطمئنّ إلى كلِّ شيء، ولا اعتبار بهذَين القلبين، وإنما الاعتبارُ بقلبِ العالِمِ الموفَّق المراقبِ لدقائِق الأحوال، وهو المحكّ الذي يمتحن به خفايا الأمور، وما أعزّ هذا القلب في القلوب، فمَن لم يثق بقلبِ نفسِه؛ فليلتمس النورَ مِن قلبٍ بهذه الصفة، وليعرِض عليه واقعتَه». اهـ [الإحياء (2/ 118)]

قلتُ: أمّا قوله: «لا نقول على كلِّ قلبٍ ... » إلخ، فالذي حمَله على اشتراطه: قطعُ السبيل على المستفتي المتشهّي المتلاعب، أو الماجن، أو الموسوَس، ولا إشكال فيه، وكذلك فعَلَ غيرُ واحدٍ مِن المعلِّقين على الحديث غيره.

وأمّا قوله: «استفتاء القلب، إنما هو حيث أباح المفتي، أمّا حيث حرّم فيجبُ الامتناع»، فلم أجده لغيره، ولا أدري وجهَه! فإن الورع وتوقّي الشبهةَ والإثمَ؛ كما يكون بترك الترخّص والتساهل، فإنّه يكون بالعكس أيضًا، والنفوسُ كما تميل إلى الترخّص والانحلال مِن التكاليف -بل ربما كان هذا هو الغالبَ عليها- فإنها تميلُ إلى التشدّد والعزائم غيرِ المشروعةِ أيضًا أحيانًا، كما يدلّ عليه قول الله تعالى ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا ﴾ [الحديد:27] ويدلّ عليه أيضًا حديث أبي إسرائيل -رضي الله عنه- في صحيح البخاريّ: وكان نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظلّ، ولا يتكلم، ويصوم، فأمره النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- بترك الجميع سوى الصوم، ويدلّ عليه أيضًا قولُه صلى الله عليه وسلم: «هلك المتنطّعون» ثلاثًا، وهو في صحيح مسلم، وغيرُ ذلك كثير.

> ”كما أن النفوس تميل إلى الترخص والانحلال من التكاليف فإنها تميل أيضا إلى التشدد والعزائم غير المشروعة“

فالمقصود: أن القلوب قد تشتهي التنطّع، وقد تميل إلى التّشديدِ والتعمّق غيرِ المشروع، كما هي حالُها في العكس أحيانًا، فليس لاشتراط إحدى الحالتين -دون الأخرى- لجواز استفتاء القلب معنًى، والله أعلم.

وقال الطّوفيّ الأصوليّ الحنبليّ [في شرح الأربعين (ص 325)]: «ما تردّد في الصّدر فهو إثم أو محلّ شبهة ولا بدّ، وذلك مما يكره اطّلاعَ الناس عليه. قوله: "وإن أفتاك الناسُ وأفتَوك": أي قد أعطيتُك علامةَ الإثم، فاعتبرْها في اجتنابه، ولا تقلّدْ مَن أفتاك في مقاربته» اهـ.

أما الإمام الحافظُ ابنُ رجبٍ الحنبليُّ، فهو أفضل من تكلّم في معنى هذا الواردِ وبيّن فقهَه ومعناه [في «جامع العلوم» (2/ 99) وما بعدها] ومما دوّنه رحمه الله: «قال معاذ بن جبل: "أحذّركم زيغةَ الحكيم، فإنَّ الشيطان قد يقول كلمةَ الضلالةِ على لسان الحكيم، وقد يقول المنافقُ كلمةَ الحقّ"، فقيل لمعاذٍ: ما يُدريني أنَّ الحكيمَ قد يقول كلمةَ الضلالة، وأنَّ المنافقَ يقول كلمةَ الحقّ؟ قال: "اجتنب مِن كلام الحكيم المشتَهرات التي يُقال: ما هذه؟ ولا يثنينّك ذلك عنه، فإنّه لعلَّه أنْ يُراجِع، وتلَقّ الحقَّ إذا سمعتَه، فإنّ على الحقِّ نورًا". خرّجه أبو داود. وفي روايةٍ له قال: "بل ما تشابَه عليك مِن قول الحكيمِ حتّى تقول: ما أراد بهذه الكلمة؟". فهذا يدلّ على أنَّ الحقَّ والباطلَ لا يلتبِس أمرُهما على المؤمن البصير، بل يَعرف الحقَّ بالنُّور الذي عليه، فيقبَله قلبُه، وينفرُ عن الباطل فينكره ولا يعرفه، ومِن هذا المعنى قولُ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم-: "سيكون في آخر الزّمان قوم يحدِّثونَكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإيّاكم وإياهم". يعني: أنّهم يأتون بما تستنكره قلوبُ المؤمنين ولا تعرفه، وفي قوله: "أنتم ولا آباؤكم" إشارةٌ إلى أنَّ ما استقرَّت معرفتُه عند المؤمنين مع تقادُمِ العهد وتطاول الزّمان، فهو الحقُّ، وأنَّ ما أُحدث بعد ذلك مما يُستنكَر، فلا خيرَ فيه. فدلَّ حديثُ وابصة وما في معناه على الرجوع إلى القلوبِ عند الاشتباه، فما إليه سكَن القلبُ، وانشرحَ إليه الصَّدرُ ؛ فهو البرُّ والحلالُ، وما كان خلافَ ذلك ، فهو الإثم والحرام ...» اهـ المقصود.

وحديث «سيكون في آخر الزمان قوم يحدّثونكم...» إلخ، الذي استدلّ به على الرجوع إلى القلوب حالَ الاشتباه -وقد رواه مسلمٌ عن أبي هريرة بمغايرة يسيرةٍ في لفظه- نصَّ على أنّ ذلك في «آخر الزمان»، حيث يكثر شرارُ الخلق، ويضعفُ إيمانُ المؤمنين، ويقلُّ العلم، فهو يرى أنّ الرجوع إلى القلوب حال الاشتباه ليس خاصًّا بالصحابة أئمة الهدى كما أراد بعضُ الباحثين أنْ يحصرَه ظانًّا أنّ «استفتاء القلب» يعني: اقتناص الأحكام الشرعية مِن طمأنينة النفس أو ميل القلب، دون الأدلة.



أمّا باقي كلام الحافظ ابن رجب -رحمه الله- في شرح حديث وابصة، فمحصّله:

1- أنّ ما فيه نصّ عن الله ورسوله يجب الإيمان به والتسليم والرضا، ولا اعتبار بخطرات القلوب ولا ما حكّ في النفس، ولا عدم انشراح الصّدر.

2- أنّ ما ليس فيه نصّ قسمان:

الأوّل: ما يؤثّر في الصدر ضيقًا وحرجًا واضطرابًا، فلا ينشرح له، وهو مع هذا أيضًا مستنكَر عند الناس، اطّلعوا عليه أو لم يطّلعوا، فهذه علامةُ أعلى مراتب الإثم عند الاشتباه.

الثاني: أن يستنكرَه فاعلُه دون غيره، بحيث يفتيه غيرُه بأنه ليس إثمًا، ومع ذلك فهو يحيك في صدر مَن شُرح صدرُه بالإيمان، فهو إثم أيضًا وإن أفتاه غيره بأنه ليس إثمًا، وهذه هي المرتبة الثانية مِن الإثم.

ثم نقل عن الإمام أحمد -رحمه الله، وهو المجتهد المطلق- نقلًا نفيسًا، قال: «وقد نصَّ الإمامُ أحمد على مثل هذا، قال المروزي في كتاب الورع: قلتُ لأبي عبد الله: إنَّ القطيعةَ أرفقُ بي مِن سائر الأسواق، وقد وقع في قلبي مِن أمرها شيء، فقال: أمرُها أمر قذر متلوِّث، قلت: فتكرَه العملَ فيها؟ قال: دع ذا عنك إنْ كان لا يقعُ في قلبك شيء، قلتُ: قد وقع في قلبي منها، قال: قال ابن مسعودٍ: الإثم حوازُّ القلوب، قلتُ: إنَّما هذا على المشاورة؟ قال: أيُّ شيءٍ يقع في قلبك؟ قلتُ: قد اضطربَ عليَّ قلبي! قال: الإثم حَوازُّ القلوب». ا.هـ

ومِن المواضع التي تتصل بالمقصود أيضًا: اشتراطُ بعض أهل العلم انشراحَ صدر المقلّد إذا أراد أن يخالَف إمامه الذي يعتقد رجحان مذهبه في الجملة، واستدلوا أيضًا بحديث الإثم المذكور، قال الزركشي -والظاهر أنه مِن منقوله عن ابن دقيق العيد-: «ولا اشتراط أن يكون الحكم مما ينقضُ فيه قضاء القاضي؛ بل إذا كان مخالفًا لظاهر النصوص بحيث يكون التأويلُ مستكرهًا: فيكفي في ذلك (كذا!) عدم جواز التقليد لقول القائل المخالف لذلك الظاهر». [البحر المحيط (8/ 377)].

وإنني لا ألوم - إذ صارتِ الفتاوىِ في هذه الأعصارِ على هذه الصورة المزرية - على مقلّدٍ تامَ الجهل، أو عاميّ مِن أخلاطِ الناس أن يتبع ما شاء ومَن شاء، فإن هذا فرضُه وكافيه عند الله إن شاء الله، ما اعتقد أنه حكمُ الله في حقّه ولم يشتبه عليه، وهذا لا يكون إلا باختيارِه مَن يعتقدُ علمَه وديانته كما سبق.

إنما كُلّ اللومِ على بعض مَن حصّل بعضَ العلمِ بنصوص الوحي، ومعانيها، وفتاوي مجتهدي علماء الأمّة حقًّا، ثم بدعوى التقليد يتعامَون عن هذا الوحي معلومِ المعنى لديهم، وتلك الأصول، والقواعد، والفتاوي؛ إلى ما يعارضُها ويخالفُها، مع أنَّ بعضَهم يصرّحُ بأنّ الأمرَ اشتبه عليه على أقلّ تقدير! ولم يعد يدري طريق الهدى والاتباع!

لكنّه مع ذلك يبقى في تقليده المذموم الذي لا يسوغ، مهما كان مقتضي الاشتباه، وداعيه، مِن نصٍّ أو فتاوي أئمةٍ وعلماء أولى بالتقليد، فهذا لا أشكُّ أنّه معطّلٌ لقولِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم: «استفت قلبَك»، غيرُ عابئ لقولِه: «والإثم ما حاكَ في النفس، وتردّد في الصّدر، وإن أفتاك النّاس وأفتوك». ولا ممتثلٌ أمرَه: «إذا حاك في صدرِك شيءٌ فدعْه». متغافلٌ متعامٍ عن قول ابن مسعودٍ رضي الله عنه (ونحوه عن ابن عمر): «مَن كان منكم مستنًّا فليستنَّ بمَن مات، فإنّ الحيّ لا تؤمَن عليه الفتنة»!

حتى إن بعضَهم إذا دُعي إلى نصرةٍ ظاهرةٍ مجردةٍ لمظلومٍ، أو الأخذِ على يد ظالمٍ ظاهرِ الظّلم، لا أقول باليد؛ بل باللسان! فإنه يتَتعْتعُ ويتلكّأ منتظرًا فتوى شيخه! وهو يَعلم أو لا يعلم أنّه -بذلك- لما أُمر تارك، وأنّ النصوصَ، والفتاوي، وأقوالَ العلماء؛ متظاهرةٌ متكاثرةٌ تحثّه على ما تركه متعمّدًا!

ولا يدري المسكينُ أنّ تقليدَه لصاحبِه المقلّد غيرُ سائغ إذ حاك في نفسِه ما حاك، بعدَ علمِه بالنّصوصِ، وفتاوي غيرِ صاحبِه مِن أهل العلم الراسخين، لا سيما ممن تؤمَن عليه الفتنة، وتركِ شيخِه لقواعدَ وأصولٍ يعلمها بعضُ المقلّدين حق العلم أحيانًا، وهذا التقليد غير السائغ مجرّدُ اتباعِ هوًى، ووقوعٍ في الحرام!

قال ابن رجب رحمه الله: «إنْ كان الاجتهادُ ضعيفًا، أو التقليدُ غيرَ سائغٍ، وإنّما حملَ عليه مجرّد اتباع الهوى، فحكمُهُ حكمُ مَن أتاه مع اشتباهه عليه، والذي يأتي الشبهات مع اشتباهها عليه؛ فقد أخبر عنه النّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- أنّه وقع في الحرام».

فالله يهدينا وسائرَ عباده إلى أقوم سبيلٍ وخيرِ ما يحبُّ مِن القول والعمل، والحمد لله أولا وآخرًا.



بين المتعصبة والمصوبة

محمد عبد الواحد (الأزهري الحنبلي)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإننا نعيش في هذه الأيام بين اتجاهات متعارضة في كثير من الأمور، بحيث يكثر الانحراف فيها إلى أحد الجانبين، ويقل سلوك الطريق الوسط العدل.

ومن هذه المتعارضات اتجاهان شاعا في أوساط طلبة العلم والمثقفين، وإن كان لكل منهما وسَطه الذي انتشر فيه وراج، وأسبابُ انتشار. هذان الاتجاهان هما المعبَّر عن أهلهما هنا بـ (المتعصبة والمصوبة).

وأما الطائفة الأولى -وهي المتعصبة- فإنها طائفة ضيقة الصدر عند الخلاف، مضيقة على المخالف، المسائل عندهم كلها قطعية أو منزَّلة منزلتها، ولا يفرقون بين الخلاف السائغ والشاذ، ولا بين المرجوح والباطل، ولا بين الدلالة السمعية إذا كانت نصًّا أو ظاهرًا أو مجملًا، ولا بين النقاش العلمي للوصول إلى الراجح والأقرب وإنكار المنكر، ويُغفلون كثيرًا أدب الخلاف، ويتكلمون بالإنكار والتغليظ في مسائل الخلافُ فيها مشهور بين السلف، بل قد يكون جمهور الفقهاء على خلاف قولهم الذي يتعصبون له.

وهذا المسلك المنفِّر مخالفٌ لما عليه أهل العلم، قال النووي رحمه الله: "ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه... لكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف =فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق؛ فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع فى خلاف آخر". [شرح مسلم (2/23)]

وقال الغزالي: "ما فيه الحسبة: هو كل منكر موجود في الحال، ظاهر للمحتسب بغير تجسس، معلوم كونه منكرًا بغير اجتهاد؛ فهذه أربعة شروط". [الإحياء 2/352].

وقال ابن تيمية: "مسائل الاجتهاد مَن عمل فيها بقول بعض العلماء لم يُنكر عليه ولم يُهجر، ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه، وإذا كان في المسألة قولان: فإن كان الإنسان يظهر له رجحان أحد القولين عمل به، وإلا قلد بعض العلماء الذين يعتمد عليهم في بيان أرجح القولين". [مجموع الفتاوي (20/207)]

وقال: "والنزاع في الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يُفضِ إلى شر عظيم من خفاء الحكم؛ ولهذا صنف رجل كتابًا سماه "كتاب الاختلاف" فقال أحمد: سمه "كتاب السعة"، وإن الحق في نفس الأمر واحد، وقد يكون من رحمة الله ببعض الناس خفاؤه لما في ظهوره من الشدة عليه". [مجموع الفتاوي (14/159)].

وقال: "وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبقَ بين المسلمين عصمة ولا أخوة". [مجموع الفتاوي (24/173)]

وقال الشاطبي: "فإن الله حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالًا للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة؛ فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف". [الاعتصام (2/170)].

وقال السيوطي: "لا ينكَر المختلف فيه وإنما ينكر المجمع عليه". واستثنى ثلاث صور، فلتراجع. [الأشباه والنظائر (ص158)]. وكلام أهل العلم في هذا كثير.

ولهذا المسلك الذي سلكته هذه الطائفة أسباب متعددة تتعلق بالنشأة والتلقي، وضيق الأفق، وقلة الاطلاع، وعدم الخبرة بطرائق السلف وآدابهم ومسالكهم، وقلة المعرفة بأقوالهم وخلافهم، والضعف في علوم الآلة كالأصول واللغة؛ مما يؤثر على فهم دلالات النصوص ومراتبها، وكثرة القراءة في كتب المتأخرين وبعض الأقدمين ممن يسلكون هذا المسلك، وخلط المسائل العقدية بالفروعية الفقهية، وسوء الظن بأهل العلم المتقدمين الناشئ غالبًا عن عدم المعرفة بسِيرهم وأحوالهم، والتوهم في بعض الأقوال أنها الموافقة للتدين والورع، وتغليب جانب الاحتياط وسد الذرائع بإطلاق وبغير انضباط.

ولا أعلم أنجع في العلاج من هذا من إدمان النظر في كتب التراث على تنوع مشاربها وكتبِ الخلاف وكتب الآثار التي تعنى بجمع أقوال السلف وخلافاتهم؛ كمصنفَي ابن أبي شيبة وعبد الرزاق، والتضلع من علوم اللغة والأصول، والقراءة في تاريخ التشريع ومناهج الفقهاء، وكثرة مراجعة سير السلف وكتب التراجم لمعرفة أقدار أهل العلم.

ومن اتسع علمه ونظره في أدلة الشرع وتصرفات الفقهاء=اتسع صدره وقل إنكاره. والسعي لرفع الخلاف الواقع بين السلف وحسمه=ضرب من الخرق ومخالفة سنن الله الكونية والشرعية.

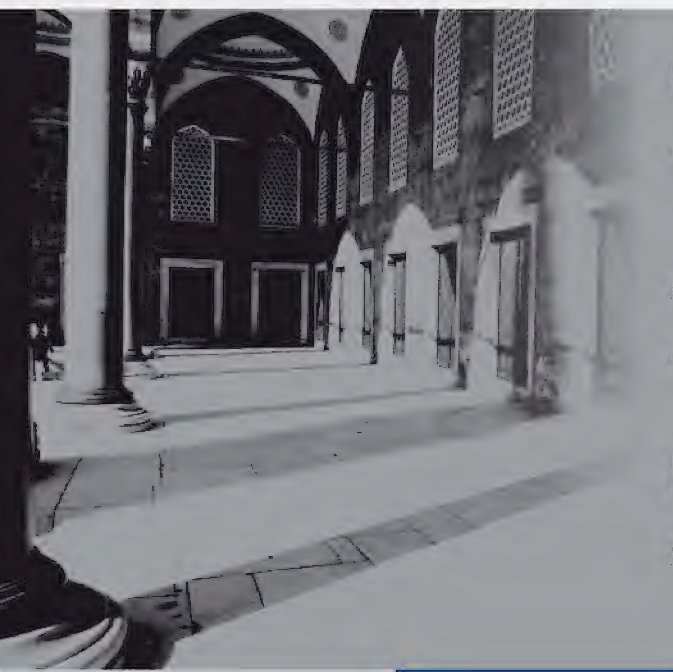
وأما الطائفة الثانية -وهي المصوبة- فهي تقابل أولئك مقابلة تامة، بل قد يكون من أسباب تبني بعضهم هذا المسلك =ما عليه الطائفة الأولى وما أثَّرته في المجتمعات.

والمراد بالمصوبة في كلامي هنا: قوم يرون أن كل مجتهد مصيب وأن الحق نسبي، ولا يعتقدون أن هناك حقًّا في نفس الأمر، ولذلك يسوغون الخلاف الفروعي مهما كان ولا ينكرون فيه، بل لا يشغلون أنفسهم بالتباحث والنقاش حول الراجح والمرجوح.

وليس النقاش هنا مع من يرى أن كل مجتهد مصيب في كل المسائل حتى الأصول؛ فقد أجمع المسلمون على أنه ليس كل مجتهد في الأصول مصيبًا للحق في نفس الأمر، وأن الإثم غير محطوط عمن خالف أصل ملة الإسلام باجتهاده، ولا عبرة بما نُقل عن بعض المبتدعة من خلاف ذلك. [كالجاحظ المعتزلي، وقد نُقل نحوه عن العنبري أيضًا، ولكنْ عنه روايتان، وبعض أهل العلم نازع في ثبوت ذلك عنه، وبعضهم رجح رجوعه عن هذا القول الباطل]

وأما تصويب المجتهدين في المسائل الفروعية؛ فهذا الذي وقع فيه خلافٌ بين الأصوليين، وهو المراد هنا.
وبيان ذلك: أن المجتهد الذي استفرغ وسعه في الاجتهاد في مسألة ولم يقصر وحَكم بمقتضى اجتهاده؛ فهل هو مصيب على كل حال، أو قد يخطئ، وكيف التعامل معه إذا أخطأ؟

والجواب: أن العلماء اختلفوا في أحكام الفروع الشرعية هل الحق فيها واحد، أو متعدد؟ على قولين، إجمالًا -وتحتهما عدةُ تفاصيل-:
القول الأول: إن الحق واحد. وهو مذهب الجماهير، وعليه أكثر الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، وبعض المعتزلة، وإحدى الروايتين عن الأشعري.
القول الثاني: إن الحق متعدد، وكل ما وصل إليه المجتهد باجتهاده فهو حق. وهو قول كثير من المتكلمين من الأشاعرة وغيرهم، وحُكي عن أبي حنيفة، ومالك، والشافعي.



والصواب: أنهم لا يقولون بذلك، ولكن في كلام بعضهم ما يدل على أن المجتهد مصيب في اجتهاده -وإن أخطأ-؛ ففُهم منه أنهم يصوبون رأي كل مجتهد، وسنبين ما في هذا.
والراجح: أن الحق عند الله عز وجل واحد، والناس مأمورون بطلبه، مكلفون إصابته، فإذا اجتهدوا وأصابوا حُمِدوا وأُجِروا، وإن أخطئوا عُذروا ولم يأثموا؛ إلا أن يقصروا في أسباب الطلب.
فالمجتهد المخطئ مأجور في الطلب إذا لم يقصّر -وإن أخطأ الحق- ومعذور على خطئه وعدم إصابته للحق، ومصيب من حيث إنه عمل بموجب ظنه وإن كان مخطئًا في نفس الأمر.

وقد دل على هذا القول أدلة كثيرة، منها:

أن النبي صلى الله عليه وسلم خطّأ عددًا من الصحابة رضي الله عنهم في عدة حوادث، ولو كان كل مجتهد مصيبًا ما خطّأهم. ومن الأدلة على ذلك: قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد". [متفق عليه].

وجه الدلالة: أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم على بعض المجتهدين بالصواب، وبعضهم بالخطأ، فدل على أنه ليس كل مجتهد مصيبًا.

ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشًا قال لهم: "إذا حاصرتم أهل حصن أو مدينة، فأرادوا منكم أن تنزلوهم على حكم الله تعالى؛ فلا تنزلوهم على حكم الله؛ فإنكم لا تدرون ما حكم الله فيهم". [رواه مسلم].

وجه الدلالة: أن الحديث دل دلالة ظاهرة على نفي كون حكم الله في الحادثة ما أدى إليه اجتهاد المجتهد، وإلا لما كان لهذا النهي معنى.

ومن الأدلة القوية على ذلك: إجماع الصحابة على إطلاق الخطأ على بعض المجتهدين، وإنكار بعضهم على بعض في وقائع كثيرة. فالإجماع منعقد في زمن الصحابة والتابعين على تخطئة بعض المجتهدين؛ إذ كان الصحابة والتابعون ينكرون على المخالف في مسائل كثيرة، والوقائع في ذلك أكثر من أن تحصر، وبعضها كان مع الخلفاء؛ كإنكار امرأة قرشية على عمر رضي الله عنه نهيَه عن المغالاة في صداق النساء، وكاعتراضِ معاذ بن جبل على عمر عندما أراد رجم الحامل، وإنكارِ عمر على عثمان عدم الغسل للجمعة، وإنكار عبيدة السلماني على علي رضي الله عنه رأيَه في جواز بيع أمهات الأولاد، وقال له: "رأيك في الجماعة أحب إلي من رأيك وحدك في الفرقة". وغير ذلك كثير.

ولذلك كان مذهب المصوبة حادثًا بعد زمن الصحابة والتابعين، وكفى بهذا شناعة عليه. ثم هو في أصله مبني على بدع كلامية، كما قال الشيرازي: "يقال: إن هذه بقية اعتزال بقي في أبي الحسن الأشعري". [شرح اللمع 2/1048].

ونَقل عن القاضي أبي الطيب الطبري: أن المعتزلة البصريين هم أصل هذه البدعة، وأنهم قالوا ذلك لجهلهم بمعاني الفقه، وطرقه الصحيحة الدالة على الحق، الفاصلة بينه وبين ما عداه من الشبه الباطلة، فقالوا: ليس فيها طريق أولى من طريق، ولا أمارة أقوى من أمارة، والجميع متكافئون، وكل مَن غلب على ظنه شيء حكم به، فحكموا فيما لا يعلمون، وليس من شأنهم. [البحر المحيط (6/243)].

ولما كان هذا المذهب تلزم منه لوازم باطلة؛ اشتد نكير بعض العلماء عليه، حتى قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: "هذا مذهب أوله سفسطة، وآخره زندقة". [نقله عنه إمام الحرمين. ينظر: البرهان (2/861)]

وما ذكره المصوبة في تأييد قولهم من حال الصحابة في تعظيم بعضهم البعض، وتسويغ استفتاء من تيسر استفتاؤه منهم، ونحو ذلك؛ فهو باب آخر، مبني على أنه لا إنكار في مسائل الخلاف السائغ، وأن العامي مذهبه مذهب من يفتيه. وتسويغُ الخلاف شيء، واعتقاد الصواب في كل قول شيء آخر.

والملاحظ أن أدلة قول المصوبة أكثرها ضعيف الدلالة على المطلوب، أو في غير محل النزاع، فكثيرٌ منها غايته أن يدل على عدم التأثيم، والكلامُ ليس فيه، وإنما هو في التخطئة، وأما الإثم فهو مسألة أخرى، ولا تلازم بين الخطأ والإثم.

فليس كل من اجتهد واستدل يتمكن من معرفة الحق، ولا يستحق الوعيد إلا من ترك مأمورًا، أو فعل محظورًا. هذا قول الفقهاء والأئمة، وهو المعروف عن سلف الأمة وأئمتها، والنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة تدل على أن الله تعالى لا يكلف نفسًا ما تعجز عنه، وتدل على أنه لا يؤاخذ المخطئ والناسي.



وهذا فصل الخطاب في هذا الباب، فالمجتهد المستدل إذا اجتهد فاتقى الله ما استطاع؛ كان هذا هو الذي كلفه الله إياه، وهو مطيع لله مستحق للثواب، ولا يعاقبه الله تعالى، خلافًا للجهمية الجبرية. ثم هو مصيب بمعنى: أنه مطيع لله في اجتهاده، لكن قد يَعلم الحق في نفس الأمر، وقد لا يَعلمه، خلافًا لمن قال من المعتزلة وغيرهم: كلُّ من استفرغ وسعه عَلِم الحق؛ فإن هذا باطل، وإنما كل من استفرغ وسعه استحق الثواب، وإن أخطأ في نفس الأمر.

ولفظ الخطأ يستعمل في العمد، وفي غير العمد، كما أنه قد يراد به الإثم، وقد يراد به عدم العلم، فإن أريد الأول؛ فكل مجتهد اتقى الله ما استطاع فهو مصيب؛ فإنه مطيع لله ليس بآثم ولا مذموم. وإن أريد الثاني؛ فقد يخص بعض المجتهدين بعلم خفي على غيره؛ ويكون ذلك علمًا بحقيقة الأمر، ولو اطلع عليه الآخر لوجب عليه اتباعه، لكن سقط عنه وجوب اتباعه لعجزه عنه، وله أجر على اجتهاده، ولكن الواصل إلى الصواب له أجران.

ومن بديع الكلام في هذه المسألة ما قاله أبو المظفر ابن السمعاني رحمه الله في رد قول المصوبة: "هذا القول يؤدي إلى أن يعود على الإجماع بالخرق، وعلى الأمة بالتخطئة؛ لأن الاجتهاد شيء معهود من لدن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم إلى أيامنا هذه، وقد أجمعوا على تخطئة بعضهم بعضًا، بل يرتقون عن هذه الدرجة، وينسبون مخالفيهم إلى القول بالباطل واعتماد غير الحق على الإطلاق من غير تحاشٍ وامتناع، وكذلك ما زال بعضهم يقيم على البعض الدليل، ويدعوه إلى ترك قوله بقوله، وإنما فعلوا ذلك لاعتقادهم بإصابتهم وخطأ صاحبهم. وظهر أيضًا بين الأمة التفرق، حتى انتسب كل طائفة إلى ما لا تنتسب إليه الطائفة الأخرى، وادّعى من إصابة الحق ما لم يعترف به من إصابة صاحبه، وهذا شيء مشهور لا يخفى على أحد.

هذا في جانب المجتهدين الطالبين الباحثين. وأما في جانب المطلوب -وهو حكم الشارع في الحادثة- فنحن نعلم أيضًا -إذ تدبرنا قانون الشريعة وأصولها وقواعدها- أن الحق أيضًا هو أن يكون الحكم في الحادثة واحدًا، وأنه أُمر المجتهد بإصابته وطلبه، وذلك لأنا نطلب الأحكام في الحوادث التي لم يرد فيها نص من الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على منهاج الأحكام التي ورد فيها النصوص؛ فإن موضع التعلق إما بالمعاني المؤثرة العالقة بالقلوب عند عرضها على الأصول، أو الأشباه التي هي موافقة للأصول ملائمة لها.

ونحن نعلم قطعًا أنه لا يوجد في الأحكام المنصوص عليها في الحوادث إلا القول الواحد في الحادثة، ولم يُعرف وجود حُكمين مختلفين يتناولهما النص بحادثة من الحوادث، بل النصوص في الكتاب والسنة تتناول الحكم الواحد في الحادثة الواحدة، فينبغي أن يكون المطلوب على وفق ذلك في الحوادث التي لم يتناولها النص، بل ينبغي أن يكون الحق ذلك، ليكون حكم الحوادث المتفرعة عن الأصول على وفق أحكام الأصول، وهذا هو الأولى بحكمة الله تعالى، أن يكون حكمه في الحادثة واحدًا غير مختلف، وأن يجعل الناس في شرعه على السواء، خصوصًا في الزمان الواحد والشيء الواحد، وهو الأولى أيضًا عند إرادته جل جلاله لتعريض العبد للثواب، وابتلائه بالطلب؛ لأن العبد إذا اعتقد أن كل مجتهد مصيب للحق عند الله تعالى يلحقه الكلال والكسل في الطلب، بل يتوانى، ويقصر، ويعتمد على أنه إن أصاب أو أصاب صاحبُه؛ فقد أصاب الحق.

وإذا علم أن الحق واحد، وأن الله عز وجل كلفه الإصابة؛ ببذل مجهوده؛ يتكلف، ويتحمل كل كَدّ وتعب في الطلب، ليصيب الحق عند الله تعالى، ثم يكون التوفيق والهداية له من قِبَل الله، على قدر سعيه وكَدِّه، وبذله جهده.

فثبت بهذه التقريرات: أن اللائق بمنهج الشرع، ومحاسن الدين، ومسالك الحق؛ أن يكون الأمر على ما اخترناه.

ولقد تدبرت، فرأيت أكثر من يقول بإصابة المجتهدين هم المتكلمون، الذين ليس لهم في الفقه ومعرفة أحكام الشريعة كثيرُ حظٍّ، ولم يقفوا على شرف هذا العلم وعلى منصبه في الدين، ومرتبته في مسالك الكتاب والسنة، وإنما نهاية رأس مالهم المجادلات الموحشة، وإلزام بعضهم بعضًا في منصوبات وموضوعات اتفقوا عليها فيما بينهم؛ فكلٌّ يُلزِم صاحبَه طردَ دعواه، وعند عجزه يعتقد عجز صاحبه، وفلح نفسه، وقد رضي بهذا القدر من غير أن يطلب شفاء نفس، أو ثلج صدر في إقامة دليل يفيد يقينًا أو بصيرة.

وهذا هو أعمُّ أحوالهم؛ إلا في التارات النادرة، فنظر هؤلاء إلى الفقه ومعانيه بأفهام كليلة، وعقول حسيرة، فعدوا ذلك ظاهرًا من الأمر، ولم يعتقدوا لها كثير معانٍ يلزم الوقوف عليها، وقالوا: لم يكلف المجتهد إلا محض ظن، يعثر عليه بنوع أمارة، وليس يستقيم تكليفه سوى ذلك، وليس ها هنا حق واحد مطلوب، وربما عبروا عن ذلك فقالوا: إنما كُلف المجتهد أن يعمل بحسب ظن الأمارة، لا بحسب الدلالة، وليس على أعيان الفروع دلالة أصلًا، وقالوا: ليس مطلوب المجتهد إلا الظن للأمارة، ليعمل على حسب ظنه.

وهذا الذى قالوه في غاية البعد، وهو أن يكون مطلوب المجتهد مجرد ظن، والظن قد يستوي فيه العالم والعامي، وقد يكون بدليل وقد يكون بلا دليل، فدل أن المطلوب هو حكم الله تعالى في الحادثة بالعلل المؤثرة، والأشباه القوية، ولابد من الترجيح لمعنى على معنى، ولشَبه على شَبه، وهذا إنما يقف عليه الراسخون من الفقهاء، الذين عرفوا معانيَ الشرع، وطلبوها بالجهد الشديد، والكدّ العظيم حتى أصابوها.

فأما من ينظر إليه من بعيد، ويظنه سهلًا من الأمر، ولا يعرف إلا مجرد ظن يظنه الإنسان؛ فيعثر هذه العثرة العظيمة، التي لا انتعاش عنها، ويعتقد تصويب المجتهدين بمجرد ظنونهم، فيؤدي قوله إلى اعتقاد الأقوال المتناقضة في أحكام الشرع، وأن يكون الشيء حلالًا وحرامًا، واجبًا مباحًا، صحيحًا فاسدًا، موجودًا معدومًا؛ في وقت واحد، والكل عند الله تعالى صواب وحق، ثم يؤدي قوله إلى خرق الإجماع، والخروج على الأمة، وحمل أمرهم على الجهل وقلة العلم، وترك الحفل والمبالاة بما نصبوا الأدلة لها، وكَدّوا فيها، وأسهروا لياليَهم، وأتعبوا فكرهم في استخراجها وإظهار تأثيراتها لما ادعوه من العلل، ثم كان نهاية وصولهم -عند هؤلاء الجهلة- أنهم وصلوا إلى مثل ما وصل إليه مخالفوهم، وأن ذلك الذى وصلوا إليه حق عند الله تعالى، وضده حق، وقوله صواب، وقول مخالفه صواب، فيكون سعيه وكَدُّه شبهَ ضائع، وثمرته كلا ثمرة، وفائدته كلا فائدة. وبطلان مثل هذا القول ظاهر، ولعل حكايته تغني كثيرًا من العقلاء عن إقامة البرهان عليه" [قواطع الأدلة (5/50-55)].



والحاصل: أن الحق واحد في نفس الأمر، والناس مأمورون بطلبه، مكلفون إصابته؛ لكنهم إن أخطئوا عُذروا ولم يأثموا؛ إلا أن يقصروا في أسباب الطلب.

ومع ذلك ففرق بين الإعذار وكذلك تسويغ الخلاف وبين التخطئة.

فليس معنى عدم الإنكار في مسائل الخلاف أن يُعتقد أن كل قول فيها صواب.

وعدم الإنكار في مسائل الخلاف السائغ لا يعني ترك التناصح والنقاش العلمي والجدال المنضبط للوصول إلى الصواب.

كما أنه لابد من التفريق بين الخلاف السائغ والخلاف الشاذ، وكذلك التفريق بين المجتهد الذي يحق له النظر والاستدلال إذا سلك السبيل العلمي المنضبط وبين غيره ممن لا يبلغ تلك الرتبة، فالأول يعذر ولا يأثم إذا لم يقصر، والثاني ينكر عليه اجتهاده وكلامه في الدين -وإن وافق الحق في نفس الأمر-.



الإسلامُقراطيون والنظام العالمي

خالد صقر

"في مصر غرق الخديوي ببطء في مستنقع الديون، محمد على الذي يعرف تمامًا إلى أين يقود الاعتماد الاقتصادي على الغير رفَض قبول المال من دائنين أجانب، إلا أن سلالته كان عليها تعلم هذا الدرس بطريقة قاسية؛ لقد أسرفوا في الاستدانة من الأسواق الأوروبية لتمويل مختلف المشاريع، فأجبَر الديْن الخديوي إسماعيل على بيع حصة مصر من شركة قناة السويس إلى بريطانيا بمبلغ تافه قدره أربعة ملايين جنيه استرليني، ولكن هذا لم يكبح -إلا مؤقتًا- الانحدار المتسارع نحو الإفلاس، وفي ١٨٧٦ باع اقطاعاته الزراعية الخاصة، وسرح العديد من ضباط الجيش وأخّر دفع مستحقات الضباط المتقاعدين؛ ولكن كل هذه التدابير لم تدرأ عنه يوم الحساب، فوُضِعت مالية البلد والدولة تحت سيطرة مزدوجة بريطانية وفرنسية ولكن ما أن حل ١٨٧٩ حتى كان الوضع في حالة فوضى بحيث نجحت الدولتان في الوصول إلى موافقة الخديوي إسماعيل على التنازل عن العرش لابنه توفيق".

[جيرمي سولت، "تفتيت الشرق الأوسط" (ص٥٣-٥٢)].

"الشريف حسين القيم على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وضع ثقة كبيرة بالبريطانيين لأنه يعلم أنهم عادلون ومتمدنون بدرجة رفيعة وهو يحبهم، كان اعتقاده عميقاً باستقامتهم، وكان يراهم أصدقاء للإسلام والمسلمين ومدافعين ومخلصين لكل العرب!". [المرجع السابق، ص١٠٣]

تطلعنا المراجع المتخصصة التي رصدت التاريخ المعاصر للمنطقة العربية على حقيقة مفجعة؛ هي أن قادة هذه البلاد قد استسلموا لفترات طويلة -خلال مراحل تاريخية فاصلة- لأعداء بلادهم على عدة مستويات اقتصادية وسياسية وثقافية؛ ففي مصر على سبيل المثال استسلمت القيادات الشعبية -والتي كان جلها من رجال الأزهر- لمحمد علي الذي أرسى قواعد التغريب في مصر، وجاء أبناؤه من بعده ليستسلموا تمامًا للسيطرة السياسية والمالية الأوروبية التي أجبرت الخديوي إسماعيل من خلال القروض على تقليص عدد وتسليح الجيش المصري -تمهيداً للاحتلال- وأجبرته كذلك على التنازل عن عرشه لتوفيق الذي كان أسهل انقياداً من أبيه وجده.



وفي شبه الجزيرة العربية كان الشريف حسين يتعاون بإخلاص مع البريطانيين ضد الدولة العثمانية ونفوذها؛ طمعًا في دولة ذات حدود قُطرية تضمن بقاءه وسلالته في الحكم، وفي نفس الوقت كانت بريطانيا تدعم السعوديين وتخطط لطرده، ولم يكتشف أن بريطانيا وفرنسا قسمتا أراضي الدولة العثمانية التي ساهم في هدمها إلا بعد ما سُرِّب النص السري لاتفاقية سايكس-بيكو.

وفي العراق دخل الجنرال البريطاني مود إلى بغداد على رأس جيش منتصر في ١٩١٧م ليملي على ملك العراق (**فيصل الأول**) ما تريده بريطانيا من الشعب العراقي، وفي كل بلد من بلاد المنطقة العربية كانت جيوش وحملات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تسترقّ الحكام والحكومات، الذين كان عندهم من الانحطاط الفكري والثقافي ما جعلهم يستمرئون هذا الرق ويرون في طياته "المدنية" و"القومية" و"العصرانية" وما إلى ذلك من الألفاظ البراقة التي اختفى خلفها القراصنة الأوروبيون أثناء سرقتهم لموارد وثروات بلادنا.

تكشف لنا القراءة المتأنية لتاريخنا المعاصر أن النظام العالمي الذي تأسست نواته في أوروبا مع اجتياح النهضة العلمية لأراضيها وبلادها =هو نظام له هدف وحيد يسعى لتحقيقه بطرق متعددة؛ كلها مبنية على ثلاثة أركان؛ أما الهدف فهو **الوصول بالإنسان إلى حد الكمال**؛ من حيث السيطرة على عالمه ومحددات وجوده، ومن حيث تحقيقه لكل رغباته وآماله وشهواته، وأما الأركان الثلاثة فهي: **العلم، والاقتصاد، والقوة العسكرية**؛ فالعلم هو آلة الوصول إلى الكمال في الفلسفة الغربية الحديثة، والاقتصاد هو الذي يوفر الموارد الضرورية لتحقيق رغبات الإنسان وآماله وشهواته، والقوة العسكرية هي التي تضمن استمرار هذا السعي المادي المحموم وذلك بالسيطرة على الحضارات المنافسة للغرب وتطويعها لخدمة ذلك الهدف.



ومن منتصف القرن العشرين إلى يومنا هذا مر النظام العالمي بعدة مراحل بدأت بتعدد أقطاب ذلك النظام إبان عصر التوسع الاستعماري في القرنين الثامن والتاسع عشر، ثم تحول النظام العالمي إلي شكل ثنائي الأقطاب خلال القرن العشرين، ثم انتهى إلى الشكل المُعَوْلم المصبوغ بالصبغة الأوروأمريكية الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة وحلفاؤها من دول الناتو، وخلال كل هذه المراحل حافظ ذلك النظام على ثوابت لم تتغير أبدًا؛ فدائمًا ما كانت الرؤية السائدة لقوى النظام العالمي تنظر إلى الدول العربية/الإسلامية على أنها مصدر للثروات والموارد، ودائمًا ما كانت تنظر إلى الإسلام على أنه دين البربرية والتخلف، وكان الاقتصاد دومًا هو أداة تطويع الشعوب والدول، وكانت القوة العسكرية دائمًا هي أداة حسم الصراع على الموارد والثروات.

لقد أدرك القائمون على النظام العالمي -الذي سيطرت عليه الفلسفات المادية بصورها المختلفة في الشرق والغرب- أن الإسلام في صورته الأصولية الصافية هو العدو الوحيد لذلك النظام وفلسفته التي وضعت رغبات الإنسان في المركز الرمزي للوجود؛ لذلك كان عليهم أن يسيطروا على بلاده وشعوبه منذ اللحظة الأولى لولادة هذا النظام العالمي، وكان عليهم أن يحافظوا على هذه السيطرة في مستويات متزايدة حتى يستطيعوا ترويض الشعوب الإسلامية وإدخالها قفص ذلك النظام، وقد حدث ذلك بالفعل منذ عقود طويلة!

هذه الدروس والحقائق التاريخية من الوضوح بما يكفي لأن تجعل أي حاكم مُخلِص لأي بلد عربي يعمل بكل ما أوتي من قوة منذ اللحظة الأولى لتوليه الحكم على التخلص من ربقة العبودية لذلك النظام الأخطبوطي، لا سيما بعد الصعود الأمريكي الخارق لقمة هرم السلطة العالمية واستشراء السيطرة الصهيوأمريكية عليها خلال النصف الثاني من القرن العشرين وحتى الآن، وهذا ما توقعه الغربيون المحافظون والمسلمون على حد سواء مع اجتياح الثورات على الأنظمة العسكرية التي كانت تشغل منصب المندوب السامي للنظام العالمي في بلادنا لعقود طويلة.

أما ما حدث بالفعل فهو العكس تمامًا!

كشفت الثورات العربية -لاسيما في مصر وتونس اللتين وصل الإسلاميون إلى سدة الحكم فيهما- النقاب عن حقيقة فكر وأيدولوجيا التيارات الإسلامية التي تأسست في الوطن العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين، واستمرت في النمو والبناء الجماهيري خلاله؛ فظهرت الحداثة في أقبح صورها في البراجماتية النفعية التي مارست بها هذه التيارات العمل السياسي في إطاره العلماني القح، وظهر التفكيك في صياغة المبررات الجماهيرية لهذا العمل السياسي.

لكن كل ذلك كان يمكن أن يكون محتملًا إذا بدأت هذه التيارات في مواجهة الواقع العالمي الكابوسي الذي تَستَعبد فيه الحكومات الكوربروقراطية الشعوب الفقيرة من خلال مؤسسات النظام العالمي؛ فكان من الممكن حينئذ أن نلتمس لهم عذرًا لسعيهم إلى التحرر من هذا الواقع وإحداث مفارقة تاريخية تمهد لإعادة استلهام مفردات الحضارة الإسلامية في المستقبل؛ لكن الكارثة أن هذه التيارات -التي صارت جديرة بوصفها بالإسلامقراطية- صدقّت بالفعل أساطير النظام العالمي التي ورثها صندوق النقد والبنك الدوليين من "**شركة الهند الشرقية**" و"**حكومة صاحب الجلالة**"!

إن سياسة الإسلامقراطيين الخارجية واستسلامهم لمؤسسات النظام العالمي، وإسرافهم في إعطاء الوعود بالحفاظ على فاعلية بلادهم في ذلك النظام، وانصرافهم في نفس الوقت عن بناء اقتصاد وطني مستقل عن الحكومات الكوربروقراطية يثبت أنهم لا يختلفون قيد أنملة عن "**الخديوي إسماعيل**" و"**الشريف حسين**"!

كان من المتوقع أن يشرع هؤلاء الإسلاميون بعد وصولهم للحكم في "**تأميم الدعوة الإسلامية**"، وصهر المجتمع في بوتقة واحدة، وإحداث حالة من الاستفاقة الفكرية لدى جموع الجماهير التي غرقت لعقود طويلة في المادية الغربية بأقبح صورها، وكان من المتوقع أن يعمل الإسلاميون على توعية هذه الجماهير العريضة بواقع بلادهم المزري الذي تتسرب فيه مواردهم الطبيعية والاقتصادية بالكامل إلى أعدائهم التاريخيين، وقبل كل ذلك كان من المتوقع أن يعمد الإسلاميون إلى هدم الرأسمالية الطبقية التي نسفت البناء المجتمعي في بلادهم، ويلجأوا إلى إعادة بناء البنية التحتية من خلال مشاريع جماهيرية تقوم على أنموذج الاكتتاب العام، من خلال أطر قانونية واقتصادية إبداعية؛ لتعود ملكية البلاد إلى جماهير المسلمين بدلًا من الشركات العالمية الأوروأمريكية أو الصينوروسية، كل ذلك وأكثر كان متوقعًا من التيارات التي ملأت الدنيا صخبًا وضجيجًا عن "**السياسة الشرعية**" و"**وحدة المسلمين**" و"**تحرير المقدسات**" و"**البدائل الإسلامية**" طوال عقود طويلة استحوذوا فيها على تعاطف الأغلبية الساحقة من المجتمعات الإسلامية.

إن واقع الإسلامقراطيين الحالي يثبت بما لا يدع مجالًا للشك أنهم "**جزء من النظام العالمي**" مثلما كان أسلافهم من حكومات العسكر السابقة وقبلهم أسرة محمد علي سرششمة، ويثبت كذلك أن فهم الواقع العالمي وصياغة رؤى ومقاربات لتغييره لم يعد منوطًا بهذه التيارات "**الصندوقية**" المحبوسة تحت قباب البرلمانات وداخل صناديق الاقتراع؛ بل أصبح منوطًا بطليعة جديدة من الشباب المتعلم، المتقن لمجالات تخصصه، والذي يؤمن بحتمية تأميم الدعوة الإسلامية وتحريرها من قيود الحزبية البغيضة وأسر التشكيلات الحركية الهرمية الموروثة من الحركات اليسارية والتنظيمات الماسونية!

إن هذه الطليعة يجب أن تعمل بلا كلل ولا ملل على توعية الجماهير بواقع الرِّق الجيوسياسي والاقتصادي الذي نعيشه منذ قرنين من الزمان؛ حتى تمهد الطريق لجيل تاريخي يعيد الملك المسلوب لهذه الأمة الخالدة!

ليس الإسلام وليس الحل

حسام عبد العزيز

"الإسلام هو الحل"، شعار إخواني يعني أن الشريعة هي الحل الوحيد لمشاكل وأزمات البشرية عامة والأمة خاصة؛ كذا قال الأستاذ مصطفى مشهور،وقد صدق؛ فجزاء الإيمان والتقوى بركات السماء والأرض، وعاقبة الفسق وإشاعة الفاحشة والربا هلاك القرى ومحق البركة وخزي الدنيا والآخرة؛ على هذا نصت أدلة الكتاب والسنة.

وبعد مرور قرابة العام من وصول الدكتور محمد مرسي إلى سُدة الحكم بدا للعوام أن المشروع الإسلامي فِرية ووهم، وكفر كثيرون بالمشروع الإسلامي ظنًّا منهم أن الشريعة لم تصمد في وجه الأزمات التي واجهت مصر، وهي فتنة لو تعلمون عظيمة.

لقد باتت النخبة الإسلامية المستقلة في مأزق، وهي ترى العوام يقلبون أكفهم دهشةً من التناقضات والأخطاء الشرعية التي لا تخطؤها عين، وصار لزامًا على هذه النخبة أن تثبت للعوام أن الشريعة لم تصل مصر بعد، في محاولة أخيرة لإنقاذ الناس من خطر الكفر بعلاقة الدين بالسياسة والتحول اللاشعوري إلى العلمانية.

فشلت جماعة الإخوان في اختبار الإعلام الإسلامي،وخرجت قناة "مصر 25" إلى قمر النايل سات بمظهر فاضح استدعى هجوم الداعية الشيخ وجدي غنيم،على خلفية برنامج تحدثت فيه إحدى المذيعات مع قيادي إخواني عن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة.

ونشر موقع المصريون تعليقات فيسبوكية أبرزت استياء شباب الإخوان من ظهور مذيعات متبرجات "لا يعبرن عن المجتمع الإخوانى ويقدمن صورة غير صحيحة عن الملتزمات"، لقد كان هذا الموقف كاشفًا؛ فالغضب الإخواني الشبابي والتوجه المحافظ لنائب المرشد خيرت الشاطر-المعروف عنه تحريمه الاختلاط بغير حاجة- لم يغيرا شيئًا في حال القناة التي لا زالت تعج بالمخالفات.



التقى الرئيس "الإسلامي" بالفنانين والفنانات، ونقلت بوابة الحرية والعدالةعن المتحدث الرسمي باسم الرئاسة د. ياسر علي قوله إن الدكتور مرسي كلفه بالاتصال بإلهام شاهين لمتابعة قضية امرأة يُقبلها الرجال ويباشرونها وتكشف عورتها في عشرات الأفلام، وأكد الفنانون الذين حضروا اللقاء أن الرئيس أبلغهم تقديره لفناني وفنانات مصر ولإلهام شاهين!

أكد الرئيس أنه لن يدَع المصريين يأكلون الربا؛ لكنه أصر على طلب قرض صندوق النقد الدولي الذي رفضه الشيخ سيد عسكر في عهد حكومة الجنزوري، وقتها قال الشيخ الإخواني: إن أي اتفاقية بقرض آليت على نفسي ألا أوافق عليها أبدًا. مستشهدًا بقول الإمام مالك: " لو أعطى إنسان لآخر مالًا على أن يرده إليه بزيادة حبة قمحٍ كان ربا". وأشار عسكر في إحدى جلسات مجلس الشعب إلى أن التدرج في تحريم الربا لم يعد جائزًا بعدما استقر الحكم.

لقد جاءت الحلول الرئيسة لعجز الموازنة في صورة قروض لا تخلو من شبهة الربا؛ كالقرضين السعودي والأوروبي.كذا، بدأ الترويج لإنجازات حقيقية بأسلوب يشوبه الكذب بغرض دعم الرئيس، فكتب موقع الإخوان الرسمي عن كمبيوتر لوحي صناعة مصرية ٪100 لنكتشف أن المعالج والشاشة والبطارية من صنع الغرب، وقدم المركز الإعلامي للإخوان ببورسعيد (التابلت) بوصفه ردًّا على من يسألون عن النهضة، وتحدث موقع الإخوان الرسمي عن قدرة الرئيس على "انتزاع" اتفاق مع شركة (سامسونج) لنجد أن الشركة تدرس الاقتراح منذ 2009 وأن دور الرئيس اقتصر على الموافقة.

لم يقدم الرئيس شيئًا للضباط الملتحين الذين خسروا عملهم بتهمة اتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ على الرغم من حصولهم على عدة أحكام قضائية تقضي بإعادتهم إلى عملهم؛ بل وفاوض رئيس حزب الحرية والعدالة الدكتور الكتاتني الضباط للعودة إلى عملهم صوريًّا بشرط التقدم بطلب إجازة لمدة ستة أشهر! بل واستطاعت الداخلية أن تهين اللحية في صورة جمال صابر معصوب العينين، ونجحت في أن تحلق لحية أحمد عرفة العضو بحركة أحرار.

لقد تخلى الرئيس وجماعته عن الضباط الملتحين في مشهد يناقض ما أكده الداعية صفوت حجازي المحسوب على الجماعة، والذي وقف قبل الانتخابات الرئاسية ليقول: أثق أنه إذا صرخت سيدة مسلمة مصرية فى أى مكان وقالت وامرساه فسينتفض لها مرسي من قصر القبة.



فتح الرئيس الإسلامي المجال للعلاقات مع إيران للمرة الأولى منذ عقود، وانطلقت الرحلات من القاهرة إلى طهران والعكس، في الوقت الذي تقوم الميليشيات الإيرانية بإبادة أهل السنة في سوريا. وتبارى بعض شباب الجماعة في التهوين من خطر التشيع، وهذا مثير للعجب، فإخوانهم في حماس المسيطرون على قطاع غزة يعانون من الاختراق الشيعي للقطاع. وصرّح القيادي الإخواني صبحي صالح بأن سب الصحابة ليس خلافًا في العقيدة، وطالب آخرون السلفيين بالتركيز على التخلص من الهيمنة الأمريكية، في وقت يقدم الرئيس فيه الضمانات لصندوق النقد الذي تحركه واشنطن.

لقد اعتبر الدكتور محمد مرسى قبل توليه الرئاسة الحديث عن الاستغناء عن المعونة الأمريكية معطلًا للمسيرة نحو استكمال المؤسسات الدستورية للدولة.

ويسعى الرئيس لطمأنة الاتحاد الأوروبي الذي ربط إقراضه مصر بإرضاء المعارضة وإصلاحات في مجالي الحريات والمرأة، قبل أيام من موافقة مصر في عهد "الحكم الإسلامي" على اتفاقية أفتى الأزهر والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ورابطة علماء المسلمين بتحريمها.

لقد أكدت قيادات الإخوان مرارًا على أنها ستطبق الشريعة الإسلامية وأنها في الوقت نفسه تقبل بالآليات الديمقراطية، ونظرًا للتعارض المتصور والمحتمل بين الشريعة والديمقراطية كان الإخوان يؤكدون على المرجعية الإسلامية كضابط للديمقراطية وليس العكس؛وهو ما كذبه الواقع عندما أعلنت الجماعة على لسان القيادي عصام العريان رفضها إحالة قانون الصكوك إلى الأزهر؛ فالشعب برأي الجماعة مصدر السلطات، والقوانين لا ينبغي أن تُعرض على الأزهر لاستبيان الحكم الشرعي فيها إلا إذا طلب نواب الشعب بالأغلبية ذلك!

لقد وضعنا هذا الحدث أمام سؤال تأسيسي: هل كانت الجماعة تريد تطبيق الشريعة عن طريق الديمقراطية أم أرادت تطبيق الديمقراطية باستخدام الشريعة؟

وتسبب هذا الخلط بين الديمقراطية والشريعة في تخبطات مزعجة؛ فهذا الدكتور مرسي يطالب -قبل توليه الرئاسة- الشعب بالثورة عليه إذا خالف الدستور والقانون، وذاكم الدكتور عبد الرحمن البر مفتي الجماعة يفتي بأن الرئيس مرسي ولي شرعي لا يجوز الخروج عليه.

كذلك، أصبح التوسع في باب المصالح والمفاسد وتتبع الرخص شائعًا جدًّا، وركنت الجماعة إلى تبرير المواقف المستنكرة بصلح الحديبية وحادثة ربعي بن عامر وحلف الفضول، وكثر الحديث عن فقه الأولويات وإباحة الكذب على العدو، وبدا أن الجماعة لا تزال تعيش في المرحلة المكية وأن هجرتنا إلى المدينة ستتأخر جدًّا.

غابت السياسة الشرعية التي لا تعرف التلون. وقبل الانتخابات الرئاسية وصف الرئيس مرسي عبد المجيد محمود بالمحترم وأثنى على نادي القضاة باعتبارهم أبرز من وقف في وجه تزوير الانتخابات البرلمانية 2010، لكن الدكتور حسين إبراهيم أمين عام حزب الحرية والعدالة اعتبر عبد المجيد محمود واحدًا من رموز عصر مبارك، مشيرًا في تغريدة نشرها في مارس الماضي إلى أن إقالة النائب العام السابق كانت أحد أبرز مطالب الثورة!

إن الجماعة التي اعتبرت إقالة حكومة الجنزوري أمرًا بدهيًا بعد كارثة بورسعيد لم تعلق على استبقاء الرئيس حكومة قنديل بعد حادثتي قطار البدرشين وتسمم طلاب الأزهر.



كذا أكد القيادي الإخواني صبحي صالح إن الجماعة تسعى إلى تطبيق أحكام الشريعة كاملة؛ لكنه عاد ليقول إن الجماعة توافق على مبادئ الشريعة فقط دون أحكامها، في اتصال هاتفي مع الإعلامي وائل الإبراشي على شاشة قناة دريم.

وأطلق الرئيس قبل الانتخابات تصريحيه الشهيرين بأن الحدود ليست من الشريعة وأن نصارى مصر لا يؤمنون بالتثليث، وأرسلت الجماعة وفدًا على رأسه مرسي والكتاتني ومفتي الجماعة لتهنئة شنودة الذي أبى أن ينصاع لحكم محكمة بإلزامه بالتصريح للمطلقين بالزواج للمرة الثانية وقال: نحن لا يلزمنا أحد إلا تعاليم الإنجيل فقط.

وقال مرسي في اجتماع مع المشايخ قبيل توليه المنصب إنه يرى الشيعة أخطر من اليهود؛ فلا تدري أكان هذا دكتور جيكل أم مستر هايد، ذلك لأنه قرر بعد الرئاسة إعادة العلاقات مع إيران واستقبال السياحة الإيرانية.

إنها لصورة غريبة للغاية عن تلك التي تفخر بها أدبيات الإخوان وتزخر، والتي أذكر منها على سبيل المثال تعجب البعض من صراحة الأستاذ سيد قطب أمام المحكمة التي قضت بإعدامه، فأجاب الرجل بأن "التورية لا تجوز في العقيدة ، وليس للقائد أن يأخذ بالرّخص".

يواصل إعلام الجماعة تحميل بعض وزراء الحكومة التي عينها الرئيس المسؤولية عن السلبيات باعتبار هذه الوزارات خارجة عن سيطرة الرئيس ومتآمرة عليه، في الوقت نفسه ينسب الإعلام الإخواني إنجازات الوزراء الناجحين إلى الرئيس؛ فهذا الإعلامي نور الدين عبد الحافظ ينتقد وزير الدفاع لنقل الإعلامي يسري فودة المصاب في طائرة عسكرية، وهذا الإعلام الإخواني يروج لإنجازات الرائع باسم عودة بوصفه مسؤول ملف التموين في مشروع النهضة، حتى أن موقع نافذة مصر الإخواني كتب عنوانًا قال فيه: وزير التموين يطبق مشروع النهضة ويضمن للشعب مخزون القمح.



إننا لسنا فقط أمام ثلة ضخمة من التناقضات التي قد تعرض التجربة للدفن تحتها؛ بل نحن كذلك بصدد وعي جمعي للجماعة لا يلتقط العيوب الذاتية وليس لديه رغبة في المران على التقاطها، وليس لديه كذلك رغبة في المران على قبول الآخرين من أطياف الحركة الإسلامية، لقد غاب مفهوم جماعة المسلمين عن الإخوان لصالح جماعتهم، وانحسرت شورى المسلمين وانحصرت في حدود مكتب الإرشاد في تجسيد متطرف لمفهوم الفرقة الناجية.

حول ذلك يقول الباحث الإسلامي أحمد فهمي في كتابه "مصر 2013": "يمتلك المنتمون لجماعة الإخوان المسلمين قناعة قوية بأن حركتهم هي الجديرة بقيادة الأمة نحو الإصلاح والتغيير المنشود، وأن غيرهم من الجماعات الإسلامية هم مجرد عقبات في الطريق، لا يملكون أي خطط أو مشروعات واضحة للتغيير، ولذلك يجب إزاحتهم أو احتواؤهم".
نعم، يشعر الإخوان بأنهم الإسلام، وفي هذا يقول القيادي صبحي صالح في مؤتمر للجماعة بالمطرية: "لو لم يكن الإخوان لقلنا رحم الله الإسلام". ويقول القيادي نفسه عقب الاعتداء عليه: "اللَّهُمَّ أمتني على الإخوان".

إن خطورة تقديم المشروع الإخواني كمشروع إسلامي لا تكمن فحسب في افتتان العوام الغاضبين من هذه التناقضات والمراوغات، بل في تعضيد ضلالات التيار العلماني الذي يحاول أن ينحي الدين جانبًا بدعوى أن الإسلام يحتمل تأويلات لا حصر لها.

خطر آخر يحدق بالمشروع الإسلامي، وهو أن الأطروحات الإسلامية التي تقدم نفسها كبديل ناضج ومستعد هي في الواقع إما نسخة براجماتية مقلدة وإما حناجر إعلامية تعتمد على الكاريزما في الإقناع أكثر من المنهج، لنصل إلى صورة "الحصالة" المتخمة بالعملات النقدية الكثيرة لكنها للأسف زهيدة الثمن.



قراءة في التجربة الإسلامية الإيرانية

محمد توفيق

ارتكزت التجربة الإسلامية الإيرانية المعاصرة في الأساس على قواعد المذهب الشيعي الاثني عشري، ومعلوم هو المنطلق السياسي - عقيدة الإمامة - الذي تمايز به المذهب الشيعي عن الخط العام لجمهور مذاهب المسلمين، حيث مثلت قضية الإمامة الركن الأساسي والأول من ثوابت العقائد الشيعية، وكانت حوادث مقتل عثمان وعلي والحسين -رضي الله عنهم- هي الشرارة التي قامت على إثرها نبتة هذه العقيدة.

وإذا سلمنا بهذه المقدمة، فإننا من خلالها نحاول أن نثبت فرضية تتعلق ببنية التجربة الإسلامية الإيرانية المعاصرة، ألا وهي: أن الأساس السياسي/الأيديولوجي "المقدس" الذي قام عليه المذهب وكذا التجربة، قد أكسب الثانية منعة وثباتاً - نسبيين - وركيزة قوية أطالت من عمر التجربة وزادت من تماسكها، ولكن كان ذلك على حساب نوعية التأثير الديني في وجدان وحياة الناس.

تمثل نظرية "ولاية الفقيه"، الخصوصية التي تميز النظام السياسي الإيراني عن غيره من النظم السياسية في العالم، وبالتالي فواقع إيران السياسي الحالي يتأثر بعوامل كثيرة ومتشابكة، تأتي نظرية "ولاية الفقيه" في مقدمتها؛ وفضلًا عن ذلك تعد "ولاية الفقيه" من وجه آخر القطب الذي تدور عليه دوائر الصراع الأيديولوجي المحتدم في إيران بين الموالين والمعارضين لها، ومن وجه ثالث تعد "ولاية الفقيه" آخر الأشكال التي طورها الإسلام السياسي الشيعي الساعي للوصول إلى السلطة. "ولاية الفقيه" إذن حمالة أوجه، وهي لذلك لا تعدم وجوها أخرى إضافية، من حيث كونها أيضاً استحضاراً لا يتوقف للمظلومية التاريخية التي مر بها الشيعة - حسب ما يعتقدون - على مدار التاريخ. كما أنها تجسد -حسب مؤيديها- الثأر التاريخي للشيعة أتباع نهج آل البيت من مضطهديهم ووصولهم لإقامة دولة الشيعة الاثني عشرية لأول مرة في التاريخ. وبذلك تصير النظرية التي طورها الخميني امتداداً فكرياً وسياسياً لعقيدة الإمامة، وتطبيقاً عملياً للمسلك التأويلي - التأويل الباطني تحديداً - الذي اتخذه فقهاء الشيعة مطية لتجاوز كل ما يطرأ على فقههم وفتاويهم من تعارضات.

ومن ثم يصبح الفقيه المناب بأمر الله – حسب زعمهم – للقيام بأمر الدين ومصالحه، وتطبيق شرائع الإسلام وأحكامه، له الولاية المطلقة على المسلمين، كما أن له مقامات لا يبلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل. وقد اعتملت الآلة الفقهية الشيعية التأويلية على جبر الغياب التام للنصوص الشرعية الصريحة التي تدلل على هذه النظرية.



ارتبط مبدأ ولاية الفقيه، على المستوى التطبيقي، بشخصية آية الله الخميني التي أهلته لتَبَوء مكانة الولي الفقيه الأول في إيران. فقد اشترط الخميني في مقومات الولي عددًا من الخصائص تتوافر فيه بالأساس، بحيث انطبقت شروط الولي الفقهية والسياسية عليه. وبناءً على ذلك، قام الخميني بإدراج مبدأ ولاية الفقيه في الدستور الإيراني عام 1979، مما أدى إلى دمج أكبر سلطة سياسية ودينية في يد فقيه شيعي أعلى، هو الخميني نفسه.

وطبقاً لويلفريد بوختا، أنشأ الخميني بموجب المادة 107 في دستور عام 1979 مؤسسة تتجاوز سلطاتها بكثير، تلك التي كانت ممنوحة للشاه بموجب دستور 1906م، وتؤسس المادة 110 من الدستور صلاحيات الولي الفقيه وحقوقه، وتفوضه في الاضطلاع بمسؤولية العمل كقائد عام للقوات المسلحة بأفرعها وإعلان الحرب أو السلم وتعبئة القوات المسلحة وتعيين وعزل الأفراد التاليين: ستة أعضاء من علماء الدين في مجلس صيانة الدستور، المكوَّن من 12 عضوًا والمسؤول عن تحديد مدى توافق مواد الدستور والقوانين مع أحكام الشريعة الإسلامية؛ ورئيس السلطة القضائية؛ ورئيس مؤسسة الإذاعة والتليفزيون؛ والقائد الأعلى لقوات الحرس الثوري الإسلامي؛ والقيادات العليا للقوات المسلحة وقوى الأمن. ويمارس المرشد الجديد عمله من خلال مكتب الإرشاد الأعلى، بمساعدة أربعة من علماء الدين، فضلاً عن شبكة من الممثلين في كل الوزارات والمؤسسات الحكومية الهامة ومعظم الهيئات الثورية والدينية.

وقد واجهت إيران الدولة، وولاية الفقيه النظرية، اختباراً صعباً بعد وفاة الخميني، فلم يعد الدمج بين السلطات السياسية والدينية واقعياً، حيث انفرط عقد المقومات الدينية والسياسية المطلوب توافرها في الولي الفقيه. فمن جانب، أخفق علي خامنئي [معلوم أن المرشد الحالي علي خامنئي قد تحصل على رتبة الاجتهاد بأطروحته التي ترجم فيها كتاب "في ظلال القرآن" لسيد قطب – رحمه الله – للغة الفارسية، وهو الأمر الذي عُدّ تساهلاً في الترقي لهذه الرتبة الشيعية.] أخفق المرشد الأعلى الجديد في توكيد ذاته كسلطة دينية، مما أبقى له فقط السلطة السياسية العليا. ومن جانب آخر، ابتعد معظم آيات الله العظمى الذين يتفوقون على خامنئي في مؤهلات العلوم الدينية عن السياسة والحكم، إما قسراً كما حال آية الله العظمى حسين منتظري، أو رفضاً لفكرة حكم رجال الدين للدولة.



وقد كان علي خامنئي "حجة الإسلام"، وهي درجة علمية أقل من آية الله، حتى وفاة الخميني عام 1989م، إلا أنه كان الشخص المفضل لدى مجلس الخبراء المسؤول عن تعيين خليفة للخوميني. ولم تفلح خطوة المجلس في ترقية خامنئي درجة في هرم العلم الديني، ورفع رتبته إلى "آية الله"، ومنحه سلطة الإفتاء، في منحه القبول لدى جماهير الشيعة. ويتشكك الكثيرون منهم في قدرته على الإفتاء. وبالتالي، تقوضت شرعية خامنئي إلى حد كبير، ومن ورائها أركان مبدأ ولاية الفقيه الأكثر قدرة سياسياً وغزارة علمياً. وقد كان من المفترض أن يكون آية الله العظمى حسين علي منتظري خليفة الخميني، إلا أن الخلافات السياسية بينهما في أعقاب انتقاد الأول لعمليات الإعدام الجماعية عام 1988، والتي طالت المساجين السياسيين من مناهضي الثورة ، أدت إلى استبعاد الخميني لمنتظري من خلافته وإرغامه على الاستقالة في مارس 1989م وخلق هذا الاستبعاد أزمة خلافة، حيث تنص المادة 109 من الدستور على ضرورة أن يكون الولي الفقيه مرجع تقليد قادرًا على الإفتاء، وباستبعاد منتظري لم يعد هناك خلفاء مناسبون من بين رجال الدين المنخرطين في السياسة. ولذلك أمر الخميني بإلغاء هذه المادة بصورة قانونية. ولم يعد الدستور المعدل عام 1989م ينص على ضرورة كون الولي الفقيه مرجع تقليد.

واستناداً إلى هذا التعديل الدستوري، انفصلت المرجعية عن القيادة بدل إلزام دمج الاثنين، كما أعطيت القيادة السياسية مزيداً من السلطات التنفيذية والحكومية. وفي المقابل، تركت شؤون الحوزات العلمية لمراجع التقليد، مع احتفاظ المرشد الأعلى الجديد بموقعه ومرتبته الدينية، ويتناقض هذا الفصل بين القيادة الدينية في الجمهورية الإسلامية عن قيادة الجمهورية مع الأفكار المؤسسة لنظرية "ولاية الفقيه"، ويعتبر المراقبون أن هذا الفصل يبدو وكأنه انتقص من المكانة الروحية والدستورية لمرشد الجمهورية، بينما غلب السياسي على المذهبي في إيران عن طريق الاستقواء بالدولة في مواجهة المنافسين الدينيين. ولذلك، وعلى الرغم من السلطات الدستورية التي يتمتع بها مكتب المرشد الأعلى، إلا أن الضعف أصاب المؤسسة بعد وفاة الخميني بصورة ملحوظة. ويعني هذا الفصل عملياً انتهاء مبدأ "ولاية الفقيه"، حيث لعب مبدأ ولاية الفقيه دوراً في تثبيت الدولة الدينية في إيران، مقترناً بشخصية الخميني، بينما ساهم في المرحلة التالية في تسويغ هذه الدولة والاحتفاظ بسلطاتها، ولكن بشروط السياسة الدنيوية ، بالإضافة إلى صعوبات اختيار الولي الفقيه المناسب، يواجه مبدأ ولاية الفقيه تحديات فكرية وعملية جمة في داخل إيران وخارجها، وتتركز هذه التحديات في جانبين؛ الرفض الفكري لمبدأ ولاية الفقيه، كلياً أو جزئياً، وتزايد الفعالية السياسية للجماهير الشيعية، وتبرز هذه التحديات على الصعيدين الداخلي والخارجي.

والخلاصة أن مبدأ ولاية الفقيه يضرب بجذوره التاريخية قبل آية الله الخميني. فقد اجتهد عدد من فقهاء الشيعة لإيجاد أدوار سياسية، بدرجات متفاوتة، للفقهاء الشيعة، فضلاً عن قيادتهم الروحية للجماهير . كما تواجدت في الستينيات والسبعينيات بيئة سياسية وفكرية مواتية لدى شيعة إيران في ظهور أطروحات تجسد محورية الزعيم الفرد في قيادة الأمة، سواء كان فقيهاً أو مفكراً ملتزماً. واستطاع الخميني بلورة هذه الاجتهادات الفقهية التاريخية، واستثمار البيئة المواتية، بفضل مكانته الفقهية عند الشيعة وشخصيته الكاريزمية، ليخرج بمبدأ الولاية المطلقة للفقيه. وارتكزت أطروحة الخميني على الإطلاق في صلاحيات الولي الفقيه، مقابل تهميش الأدوار السياسية للجماهير والمثقفين، وغياب المحاسبة والشفافية في سلطات الولي وممارساته. إلا أن التحولات السياسية في المراحل اللاحقة، قبيل وفاة الخميني وبعدها، ساهمت في تقويض أركان مبدأ ولاية الفقيه. فقد أدت الاعتبارات السياسية المحضة إلى استبعاد آية الله منتظري، المرشح الأكثر ملائمة، من خلافة الخميني، ليحل محله علي خامنئي. ونتيجة لافتقاد المرشد الحالي للمقومات الفقهية الضرورية كمرجع تقليد أعلى، انفصلت القيادة السياسية عن القيادة الروحية. ويتناقض هذا الفصل بين القيادة الدينية في الجمهورية الإسلامية عن قيادة الجمهورية مع الأفكار المؤسسة لنظرية "ولاية الفقيه". **ويعني هذا الفصل عملياً انتهاء مبدأ "ولاية الفقيه".**

معارضة مبدأ الولاية المطلقة للفقيه استلزم تعدد مراجع التقليد

وبرغم البقاء النظري لمبدأ ولاية الفقيه، إلا أن الممارسات السياسية والدينية لقيادات وجماهير الشيعة داخل إيران وخارجها خلقت تحديات فكرية وعملية له. فقد تنامت المعارضة لمبدأ الولاية المطلقة للفقيه على الجوانب السياسية والروحية، مستندة إلى افتقار المرشد الحالي للمقومات الفقهية الواجبة للولاية الروحية، مما استلزم تعدد مراجع التقليد. كما تنامت الفعالية السياسية للجماهير الإيرانية وتعقدت التوازنات السياسية الداخلية لدى شيعة الخارج، في لبنان على سبيل المثال. وبالتالي، تبلورت اجتهادات مختلفة تجاه المواقف السياسية لجماهير الشيعة في داخل إيران وخارجها، تتناسب بالأساس مع المطالب السياسية والمصالح الوطنية، ولا تتبع بالضرورة إرشادات الولي الفقيه. ويتضح مما سبق، أن مبدأ ولاية الفقيه ارتبط إلى حدٍ كبير بشخصية آية الله الخميني، والذي رسم ملامح ومقومات الولي كأقرب ما يكون إليه شخصياً. وأدى هذا إلى نجاح تطبيق مبدأ الولاية في أثناء حياة الخميني. إلا أن تغليب الاعتبارات السياسية على المقومات الدينية في اختيار خليفة الخميني، برغم افتراض تأسيس مبدأ الولاية على عكس ذلك، قوض أركان ولاية الفقيه. فعندما افتقر الولي الفقيه لمقومات الإرشاد الديني والقيادة الروحية ضعفت سلطاته السياسية، بل واضطر لعقد تحالفات سياسية مع المستفيدين من هيراركية الجمهورية الإيرانية بوضعها الراهن. أي أن مبدأ ولاية الفقيه بات يحتاج الكثير من المراجعات النظرية، في ضوء التطبيقات العملية والتحديات الداخلية والخارجية التي تواجهه، وإلا اندثرت دولته.

ثمة مفارقة في صلب التجربة الإسلامية الإيرانية، فعلى الرغم من التأكيد الدائم من جانب رجال الثورة الإيرانية وصانعي القرار في إيران على الطبيعة الأيديولوجية للنظام السياسي، والتي كانت من الطبيعي أن تنسحب على شكل وممارسات مؤسسات الدولة، إلا أن "اللامتوقع" قد حصل لبعض المؤسسات، حيث اقتصر الطابع الإسلامي على أسمائها دون ممارساتها الداخلية، وتبرز مفارقة كتلك في قطاع البنوك على سبيل المثال والتي اتخذت أشكالاً إسلامية دون المضامين والممارسات المرجوة. وللطبيعة السياسية الواضحة للتجربة الإيرانية، لم تكن هذه المفارقة حاجزاً جوهرياً أمام مسار التجربة وأهدافها، بل كان المستهدف بشكل أساسي هو الحفاظ على صلابة واستقرار النظام السياسي الجديد، ومثلت وفاة الخميني - المنظر الرئيس لقواعد التحاكم السياسي - تحدياً مهماً في نهاية الثمانينيات أمام التجربة الإيرانية، وبات غياب ملهم الثورة وزعيمها مشكلاً عقديًا أمام ثابت "ولاية الفقيه"، وواجه النظام خطر الانقسام وعدم الاستقرار، بيد أن حجة الإسلام علي خامنئي استطاع تجاوز هذا الخطر عقب خلافته للخميني ، حيث أبقى هذه الانقسامات التي ظهرت بالفعل ضمن حدودها الدنيا، وقد تجمعت حينها جملة من الأسباب التي ساعدت على ذلك منها:

- مؤسسات الثورة التي أسسها الخميني وراح يثبتها في مفاصل الدولة، والتي ارتبطت بأيديولوجية الثورة بشكل أكبر نسبياً من ارتباطها بالقيادة.
- التوازن الذي استطاع الخميني أن يحفظه بدقة بين القوى الإيرانية المختلفة ومن أهمها الفقراء والتجار ورجال الدين.
- عمل الخميني ونظامه على ايجاد كوادر فاعلة من الصفوف الثانية والثالثة بغية دفع عملية الإحلال والتجديد في مفاصل الدولة نحو البناء الأيديولوجي المرجو، وقد نجح بقدر كبير في تحقيق ذلك، خاصة في قطاعات الجيش والشرطة والجامعات والمدارس.

ولعله من الممكن أن نقارب التجربة عبر مستويين تحليليين، أحدهما كمي والآخر نوعي، حيث نرى **في المستوى الكمي** - مستصحبين دوماً البعد السياسي - للتجربة جملة من المؤشرات التي تستنطق التقييم من خلال هذا المستوى:

-القدرات العسكرية والتكنولوجية والصناعية الإيرانية بلغت درجات عالية من التطور والكفاءة، الأمر الذي خلق جاهزية للنظام الإيراني لمواجهة المحور الأمريكي-الأوروبي الذي يسعى بضراوة لكسر شوكة المشروع الإيراني، ولا شك أن النظام الإيراني استطاع - حتى الآن- أن يضمن نفوذه في المنطقة العربية بشكل عام، وكذا مناطق التوتر بالداخل الإيراني بشكل خاص، معتمداً على صلابة موقفه بشأن برنامجه النووي والذي ضمن له الحصول على قدر جيد من التنازلات التي قدمتها الولايات المتحدة.

- خريطة التأثير والنفوذ الإقليمي التي تطالها يد المشروع الإيراني تمثل درجة متوسطة على المستوى الكمي للتجربة، بيد أن هذا التأثير والنفوذ يترتب في ثلاثة مستويات أساسية:

أ. المستوى المرتفع: حيث يتمثل في محور سوريا – العراق – لبنان، مدعوماً بكلٍ من روسيا والصين، وقد بات هذا المستوى مهدداً بالانهيار بعد الثورة السورية وبوادر الانتفاضة العراقية، فالحليف السوري/العلوي مثَّل عمقاً استراتيجياً أساسياً للمشروع الثوري الإيراني، بل كان ضمن مرتكزات الأمن القومي الإيراني. بينما تمثل السلطة الحاكمة في العراق عمقاً إستراتيجياً مستحدثاً للمشروع التوسعي الإيراني، حيث يهمين الشيعة على جل المناصب الفاعلة في الحكومة والجيش والشرطة العراقية. [لا يمكن الجزم بالولاء الكامل من قبل النظام العراقي تجاه المشروع الإيراني، حيث تتفرع الاتجاهات الشيعية في العراق إلى اتجاهين بارزين، الاتجاه الصدري، وتيار آل الحكيم، وبينهما مشتركات ومختلفات سياسية.]. أما لبنان فيعتبر "حزب الله" هو الممثل والوليد الشرعي والرسمي للمشروع الإيراني في المنطقة، حيث يصرح في أدبياته على مرجعيته الشيعية واعتبار قائده الروحي هو "الولي الفقيه".

ب. المستوى المتوسط: ويتمثل هذا المستوى في أنوية المشاريع الإيرانية الموجودة تحديداً في الجزيرة العربية، حيث تمتد أذرع ظاهرة "حزب الله" في اليمن والبحرين بشكل قوي ومؤثر، بينما تتخذ القوى الشيعية حراك جماعات الضغط لتوسيع نطاق تأثيرها في السعودية والكويت والأردن.

ج. المستوى المنخفض: وهو متمثل في المشاريع التبشيرية للمذهب الشيعي، حيث تبذل إيران مجهودات مضنية لنشر الفكر الشيعي في مصر وتركيا والسودان، كما أنها اخترقت الغابة الأفريقية، وراحت تقوم على مشروعات تنموية ودعوية وتعليمية وخيرية (دبلوماسية القوة الناعمة) في عدد من دول أفريقيا.

- قضية تصدير الثورة الإسلامية التي تم الخلط فيها بين الجانب الثقافي والجانب العسكري والأمني، مما أثار حولها التوجسات العسكرية والأمنية، وكانت سبباً مباشراً في قيام الحرب العراقية- الإيرانية، وتوتر العلاقات العربية- الإيرانية، وباتت العلاقات الإيرانية بجل دول الجزيرة العربية وخاصة السعودية في غاية التوتر والخصومة السياسية والعقائدية، الأمر الذي يضفي على المشروع الإيراني صبغة انتهازية، فتحاول أن تخترق ثغرات خصومها لبسط مشروعها وتسويقه.

- يحاول المشروع الإيراني تجاوز العقبة الثقافية التي تواجه أي مشروع إسلامي معاصر، حيث تمثل الأدوات العولمية منطلقاً له لإثبات تجاوبه مع مستجدات العصر، ومن ذلك الحضور الفني للسينما الإيرانية في المحافل الفنية العالمية، حيث استطاعت السينما الإيرانية خلال العقود الأخيرة فرض نفسها على الساحة العالمية، حتى احتلت المركز الثاني عشر عالميا، وحازت الأوسكار (أرفع جائزة سينمائية علي مستوي العالم).

- وجاءت السينما الإيرانية لتحطم الصورة التقليدية الجامدة المأخوذة عن إيران كدولة إسلامية شيعية متشددة, وأكدت للعالم أجمع أن لديها من الفكر والانفتاح والنضوج العقلي ما يؤهلها لمسايرة السينما العالمية، بل يجعلها في المقدمة على مستوي النضج الفكري والإبداعي.

وعلى صعيد المستوى النوعي، نلمح جملة من المؤشرات:

- الخلافات السياسية القائمة بين الحوزتين العلميتين في قم والنجف تمثل شكلاً من الصراع السياسي بين القطبين.

- سيطرة إيران على زعامة المذهب الاثنى عشري، وغلبة النزوع للإرث الفارسي، الأمر الذي يمثل عائقاً صلباً أمام مشاريع التوسع ومحاولات تصدير الثورة والفكرة الإيرانية، فحكومة إيران تتعمد عدم نشر إحصائية رسمية بالتوزع العرقي، بسبب سياستها القائمة على تفضيل العرق الفارسي، والحقيقة أنها تنتهج سياسات إقصائية لباقي الفصائل المكونة من [(CIA World Factbook) على موقع وكالة الإستخبارات الأميركية.] :

الفرس ٪63 - الأتراك (الأذر والتركمان) ٪20 - العرب ٪8 - الأكراد ٪6 - البلوش ٪2 - جماعات أخرى ٪2.

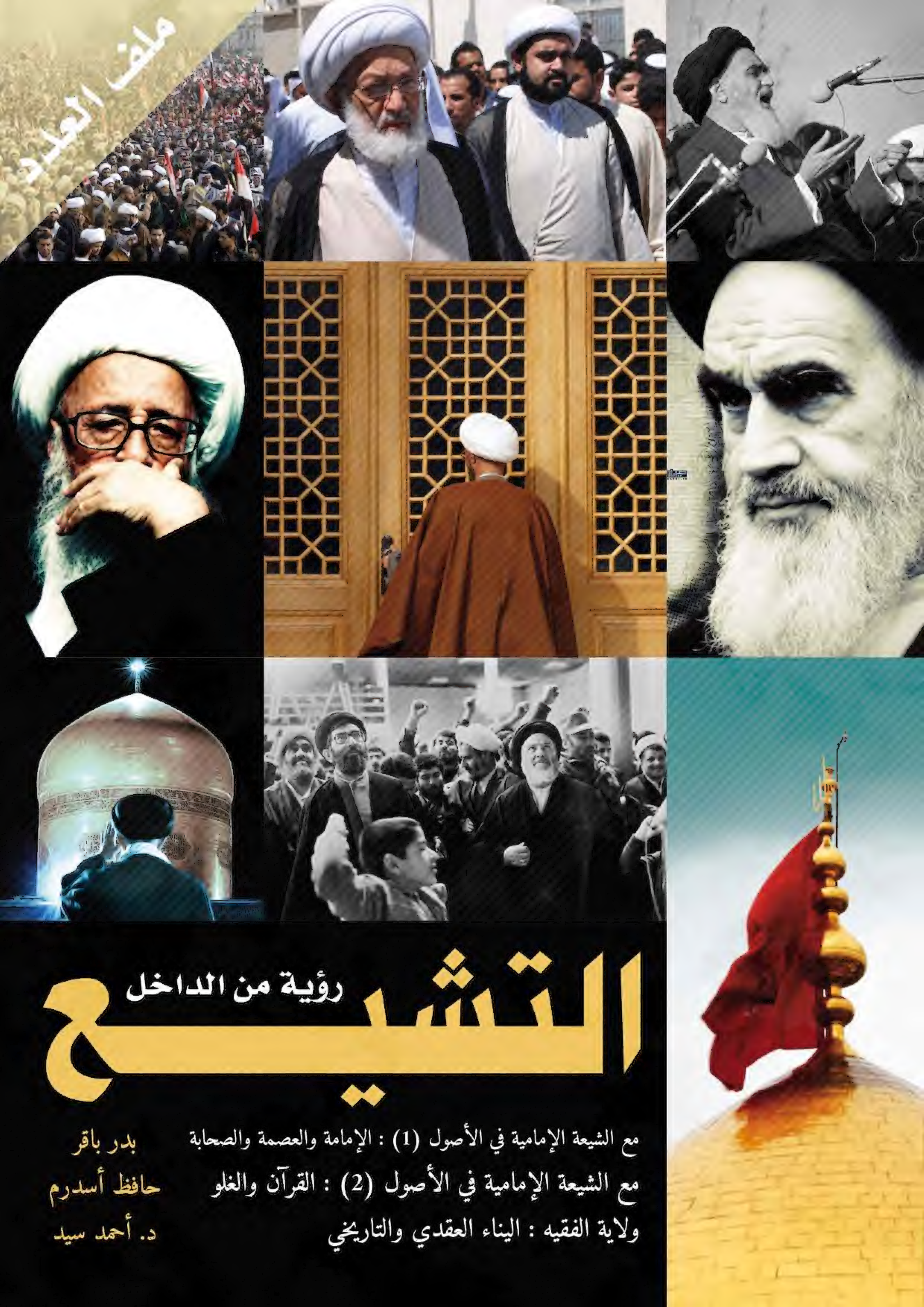
كما أن طهران أحد أندر العواصم العالمية التي تخلو من مسجد للسنة، وتتضارب المعلومات بشأن الحجم الحقيقي للسنة في إيران، فالإحصاءات شبه الرسمية لحكومة إيران تقول أنهم يشكلون 10 ٪ من السكان، إلا أن بعض مصادر السنة تؤكد أنهم يشكلون ٪30، وهو يوافق -كما يقولون- الإحصائية القديمة التي أجريت أثناء حكم الشاه، كما أن مصادر مستقلة تقول إن السنة يشكلون من 15 إلى 20 ٪ من سكان إيران.

- يتخذ المشروع الإيراني مدخلاً سوسيو - ثقافي لبسط السيطرة على عقول الأتباع والمبشرين، حيث إنه يعمد إلى تصوير "الولي الفقيه" في مخايلهم بصورة الزعيم المقدس والخارق للعادة، حيث تنتشر صور الخميني وخامنئي في أماكن كثيرة من إيران، وفي العروض العسكرية وفي الاحتفاليات والمناسبات، تماماً كما الحال في المشروع الناصري الذي استخدم هذا المدخل بصور جمال عبد الناصر وتصويره كزعيم ملهم ومنقذ للعروبة والعرب.

- الفساد الذي يطال قطاعات من الرموز الدينية المنتفعة من "الخمس"، حيث تنخلع الصورة الكهنوتية واليوتوبية وتهتز القدسية التي يتلبس بها رجل الدين من العقل الشيعي.

وبقراءة المستويين التحليليين الكمي والنوعي، يظهر لنا صحة الفرضية التي طرحناها في البداية، فالبعد السياسي للمشروع غلّب جانب التوسع والدعوة للفكر الشيعي على نوعية الأتباع والمؤيدين، وهو نوع من "الفصام" الذي يشق شخصية الإنسان بين ظاهر وباطن متناقضين، وغدت الممارسات الإسلامية صوراً تؤدى اضطراراً من قبل قطاعات واسعة من الناس هروباً من رقابة رجالات تطبيق الشريعة، فضلاً عن صورة أحكام الشريعة في الفكر الشيعي، والتي اتسمت بمرونة لا متناهية نتيجة الصلاحيات التأويلية الباطنية التي تتاح لرجال الدين.

ويبدو أن المطرد في فلسفة التوسع والدعوة للمذهب والمشروع الإيراني الشيعي، هو استخدام الأبواب الخلفية والمسالك الخفية، فدول الجوار وخاصة دول الخليج العربي، تعاني من التدخل الإيراني المؤثر سلباً في الشؤون الداخلية، وذلك من خلال العائلات والطوائف الشيعية، حيث مثلت احتجاجات مدينة "القطيف" ومثيلاتها في البحرين امتداداً للمحاولات الإيرانية المستمرة لمد نفوذها إلى الجزيرة العربية، ولا شك أن هذه الطريقة في نشر النموذج الإيراني تمثّل مصدر استعداء ومخاصمة لجاراتها في المنطقة.



ملف العدد
التشيع
رؤية من الداخل
مع الشيعة الإمامية في الأصول (1) : الإمامة والعصمة والصحابة
بدر باقر
مع الشيعة الإمامية في الأصول (2) : القرآن والغلو
حافظ أسدرم
ولاية الفقيه : البناء العقدي والتاريخي
د. أحمد سيد

مع الشيعة الإمامية في الأصول ١

الإمامة - العصمة - الصحابة

بدر باقر

(غزو الشيعة): كلمة كثيرا ما تطرق مسامعنا هذه الأيام، فوجب بيان ما المقصود بالشيعة، والخطر الذي جعل دخول التشيع إلى أرض بمثابة الغزو لها!

قال ابن فارس رحمه الله: (الشين والياء والعين) أصلان يدل أحدهما على معاضدة ومساعفة، والآخر على بث وإشادة. [مقاييس اللغة لابن فارس (3/235).]

وبتأمل المعنى اللغوي يمكننا استيعاب لفظة (شيعي) بجميع إطلاقاتها عند السلف والتي أُطلقت بإرادة التصنيف والتمييز. فهي تارة دالة باعتبار الأصل اللغوي الأول فيقصد بها بيان النصرة كما في قولهم: "شيعة علي وشيعة معاوية"، والغرض من استعمال اللفظة هنا = التمييز بين أنصار علي وأنصار معاوية في تلكم الحرب مع قطع النظر عن أي اعتبارات أخرى.

وتارة تُستعمل باعتبار الأصل اللغوي الثاني فيقصد بها الإشادة والتفضيل = فيوصف بهاكل من فضّل عليا على أحد الثلاثة الذين سبقوه بالخلافة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وصدق الوصف باعتباره اللغوي على فرد أو جماعةلا يستلزم صدقه باعتباره الاصطلاحي والذي يقصد به تمييز كل من خرج من دائرة أهل السنة بمعناها الأعم.

والخروج من دائرة أهل السنة -بأوسع نطاقاتها- إلى دائرة التشيع يكون بتفضيل علي رضي الله تعالى عنه على الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر حصرا، أما تفضيله على عثمان أو من سواه من صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم= فيبقي صاحبه في دائرة أهل السنة على الصحيح.

وعليه نخلص بأن التشيع بمعناه الذي اصطلحت عليه كتب الفرق؛ يشترك أهله في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه على الشيخين رضي الله تعالى عنهما، وبضميمة عقائدهم الأخرى يكون امتيازهم فيما بينهم، فمنهم من غلا في التشيع بأن بلغ بعلي رضي الله تعالى عنه رتبة الألوهية كالسبئية -وهؤلاء خرجوا من دائرة الإسلام لا من دائرة السنة فحسب-، وأقلهم شططا وأدناهم إلى أهل السنة من فضَّل عليا رضي الله تعالى عنه وضم إليه توقير الصحابة جملة كمعظم الزيدية.

ومن يهمنا اليوم من طوائف الشيعة هي الطائفة المسماة بالاثني عشرية؛ وقد لقبوا بذلك لاعتقادهم بإمامة اثني عشر إماما [هم علي والحسن والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، ومحمد بن الحسن وهو المهدي المنتظر في الاعتقاد الإمامي.]، والاثنا عشرية -من حيث الجملة- يقبعون في الوسط على مقياس الغلو في التشيع، ويدور حديثنا حول أهم الأصول التي خالف بها الاثنا عشرية أهلَ السنة، وما سنذكره يصلح كتوصيف للشيعي كما ينبغي أن يكون بحسب ما يقرره أساطين المذهب، وفي أفرادهم تفاوت في التزام ذلك إفراطا وتفريطًا.

وسنقتصر على ثلاثة أصول رئيسة امتازت بها الاثنا عشرية عن غيرها:

1- الإمامة:

تتفق الفرق الإسلامية على حسن الأنبياء فتقام بهم الحجة وتستقيم ببعثتهم أمور الدين والدنيا، وليست الإمامية في ذلك بدعا، إلا أنهم أوجبوا على الله -من باب اللطف[النكت الاعتقادية للمفيد ص39.]- تعيين إمام مخول بإتمام ما بلَّغت به الأنبياء وتكون إليه رياسة الدين والدنيا بعدهم، ولا تستقيم الدنيا ولا تستكمل الأديان إلا بالإمامة [قال الوحيد الخرساني في منهاج الصالحين (1/498): "فهو الذي أتم الله به نوره، وبوجوده كلمته، وهو الذي كمل الدين بالإمامة، وكمل الإمامة به".] إلهية المصدر، فالإمامة عندهم "منصب إلهي مقدس لا يتحقق لأحد إلا بنص من الله (تعالى) ، أو من نبيه المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى". [دلائل الامامة لمحمد بن جرير بن رستم الطبري (وليس هو الإمام المفسر المعروف)ص 18.]

ومقتضى المصدرية الإلهية للإمامة ألا يكون للبشر أدنى حرية في اختيار إمامهم، فكما أن الله تعالى يصطفي الأنبياء فكذلك الأئمة، وقد نص علماؤهم على ذلك صراحة فيقول الشيخ محمد رضا المظفر: "نعتقد أن الإمامة كالنبوة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان رسوله أو لسان الإمام المنصوب بالنص إذا أراد أن ينص على الإمام من بعده ، وحكمها في ذلك حكم النبوة بلا فرق ، فليس للناس أن يتحكموا فيمن يعينه الله هاديا ومرشدا لعامة البشر ، كما ليس لهم حق تعيينه أو ترشيحه أو انتخابه ، لأن الشخص الذي له من نفسه القدسية استعداد لتحمل أعباء الإمامة العامة وهداية البشر قاطبة يجب ألا يعرف إلا بتعريف الله ولا يعين إلا بتعيينه". [عقائد الإمامية محمد رضا المظفر ص 74.]

وينسب علي الميلاني -أحد علماء الإمامية المعاصرين- ذلك المعتقد للإمامية عموما فيقول: "إن مذهب أصحابنا أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة ، وطريق تعيين الإمام هو النص أو ما يقوم مقامه لا غير ، فكل ما يعتبر في النبوة معتبر في الإمامة ، وكلما ليس بمعتبر في النبوة فليس معتبرا في الإمامة ، وكما أن النبي ليس بمجتهد بل هو مبلغ لما أمره الله تعالى بإبلاغه بالوحي كذلك الإمام فهو مبلغ لما أخذه وتعلمه من النبي". [الامامة في أهم الكتب الكلامية لعلي الميلاني ص 49.]

وبما أن المعتبر في الإمامة معتبر في النبوة = فينبغي عقلا أن تشغل ذات الحيز التي تشغله النبوة كأصل من أصول الإيمان، ولم يخيب علماء الشيعة التوقعات، فها هو محمد حسين آل كاشف الغطاء وبعد سرده الأصول الأربعة التي ينبغي اعتقادها [وهي كما ذكرها: (التوحيد، والنبوة، والمعاد، والعمل بدعائم الإسلام: الصلاة والصيام والزكاة والحج).] يتبع ذلك بقوله: "لكن الشيعة الإمامية زادوا (ركنا خامسا) وهو : الاعتقاد بالإمامة . يعني أن يعتقد : أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة...". [أصل الشيعة وأصولها لكاشف الغطاء(ص 211).]

ولأن الغلو لا ينتهي إلى غاية، لم يكتف الإمامية بأن جعلوا الإمامة قرينة للنبوة بلا دليل شرعي ناهض، بل قالوا بتفضيلها على النبوة، فيقول المجلسي: ”انعقاد الإجماع على كون النبي أفضل ممن ليس بنبي مطلقا ممنوع ، كيف وأكثر علماء الإمامية بل كلهم قائلون بأن أئمتنا عليهم السلام أفضل من سائر الأنبياء سوى نبينا صلى الله عليه وآله“ [بحار الأنوار للمجلسي(21/284).]، وفي ذات السياق يقول آية الله السيد كاظم الحائري: ”إن الذي يبدو من الروايات أن مقام الإمامة فوق المقامات الأخرى - ما عدا مقام الربوبية قطعاً- التي يمكن أن يصل إليها الإنسان“ [الإمامة وقيادة المجتمع للحائري ص26.]، كما يقول آية الله الشيخ محمد المحمدي الريشهري [والريشهري أحد أعيان النظام الإيراني وقد تقلد مناصب عدة أهمها: (رئيس المحكمة الثورية العسكرية، المدعي العام للبلاد، وزير الأمن، حاكم شرع).] : "إن أعلى درجات الولاية هي أعلى درجات الإمامة والقيادة في الإنسان الكامل، وقد عدها الكلام الإلهي أعلى من النبوة أيضا" [القيادة في الإسلام للري شهري ص78.]، ومن النصوص المأثورة عن الخميني قوله: "وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل". [الحكومة الإسلامية للخميني ص52.]

ولم يكتف علماؤهم بتفضيل الإمامة على النبوة بل عدُّوا الإمامة "أهم المطالب في أحكام الدين، وأشرف مسائل المسلمين" [منهاج الكرامة ص29.] كما صرح به علامتهم ابن المطهر الحلي.

ورغم تقريرهم للتباين بين الإمامة والنبوة وتفوق الأولى على الأخيرة في الرتبة والمنزلة؛ فقد حار علماؤهم واضطرب مفكروهم في استنباط ضابط يصلح للتفريق بينهما، فتقرأ الصفحات الطويلة والتي يقصد كتَّابها تحرير الفرق بين الرتبتين، ثم لا تخرج منها بفرق يذكر، فكل ما يذكر للتفريق (كالوحي، والتشريع، والقيادة الخ) = تبطله النصوص المنقولة عن الأئمة، وهو ما صرح به علامتهم محمد باقر المجلسي فقال: "استنباط الفرق بين النبي والإمام من تلك الأخبار لا يخلو من إشكال وكذا الجمع بينها مشكل جدا .. وبالجملة لا بد لنا من الإذعان بعدم كونهم عليهم السلام أنبياء وبأنهم أشرف وأفضل من غير نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) من الأنبياء والأوصياء، ولا نعرف جهة لعدم اتصافهم بالنبوة إلا رعاية جلالة خاتم الأنبياء ، ولا يصل عقولنا إلى فرق بيِّن بين النبوة والإمامة ، وما دلت عليه الأخبار فقد عرفته ، والله تعالى يعلم حقائق أحوالهم صلوات الله عليهم أجمعين". [بحار الأنوار للمجلسي(26/82).]

فغاية ما حصله المجلسي عبر النظر في الأخبار أن تجريدهم من وصف النبوة هو لرعاية جلالة خاتم الأنبياء لا أكثر!

2- العصمة:

غلو الإمامية في التفضيل هو ما بدأ به انفصالهم عن أهل السنة، ومنه تفرعت سائر عقائدهم، وينبغي أن يفهم القارئ في التراث الإمامي أن الطبيعة الإمامية لا تقبل إلا بالتفضيل المطلق من كل وجه، فلا تقبل بمجرد التفضيل الذي يمكن معه مشاركة المفضول للفاضل، بل ينبغي أن يكون الاشتراك ممتنعا من كل وجه، وعليه كان استحقاق الإمامة بالنص الإلهي، ومنه تفرع القول بالعصمة المطلقة للأئمة.

فيقول محمد رضا المظفر: " ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوما من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، من سن الطفولة إلى الموت ، عمدا وسهوا . كما يجب أن يكون معصوما من السهو والخطأ والنسيان" [عقائد الإمامية للمظفر ص67.]

لاحظ قوله: "من سن الطفولة إلى الموت"، فالنفسية الشيعية تصر على تفرد الإمام من كل وجه، فحتى طفولتهم ليست كطفولة غيرهم!

ويقول المجلسي: "اعلم بأن الإمامية رضي الله عنهم اتفقوا على عصمة الأئمة عليهم السلام من الذنوب صغيرها وكبيرها، فلا يقع منهم ذنب أصلا لا عمدا ولا نسيانا ولا لخطأ في التأويل ولا للإسهاء من الله سبحانه..".

ويجعل الإمامية العصمة لازمة للإمامة، فكل إمام معصوم ''لأنه لو ثبت إمام وهو غير معصوم لنال عهد الله تعالى ظالما'' [كتاب الألفين للعلامة الحلي ص403.] ، ويقبل الشيعة القول بعصمة من ليس بنبي ولا إمام، كما قالوا بعصمة فاطمة رضي الله تعالى عنها.

3- الموقف من الصحابة

عصمة، ومنصب إلهي، وأفضلية مطلقة لعلي رضي الله تعالى عنه، عقائد لا تجد لها أثرا على فعل صحابة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، فهم استقروا على أبي بكر الصديق خليفةً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلدوه أمرهم وأذعنوا له بالطاعة، وبعده عمر وبعد عمر عثمان، فكان فعل الصحابة إشكالا يعصف بعقيدة الشيعة فإما -والحال كذلك- أن يتخلى الشيعة عن معتقدهم أو عن الصحابة، فاختار الشيعة الإبقاء على معتقدهم، وأوجبوا استحقاق الصحابة للذم واللعن لغصبهم حق الإمام الشرعي، ولم ينج من لعنات الشيعة سوى:



أ- قلة قليلة من المهاجرين والأنصار لا يتجاوزون -بأحسن الأحوال- أصابع الكفين، والمشهور أنهم أربعة وهم: سلمان الفارسي، المقداد بن الأسود، أبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وحتى هؤلاء الأربعة لم يسلموا من الغمز فبحسب ما يقرره الشيعة لم يكن التسليم المطلق إلا من المقداد، أما الثلاثة فقد ظهرت منهم مخالفات تقدح فيهم، أشدها تلكؤ عمار وتردده في قبول أمر الله في الإمامة ثم رجوعه إلى الإقراربها بعد ذلك!. [بحار الأنوار (22/440).]

ب- مانعي الزكاة: وكان ذلك مخرجا أوجدوه لعدم قبول العقل تخلي جميع الصحابة عن الإمام المنصَّب من الله، وجنوحهم إلى إمامة رجل لا مصلحة لهم في إمامته ولا سلطان له عليهم، فلجأوا إلى أسطورة خلاصتها أن منع الزكاة لم يكن إلا رفضا لإمامة الصديق رضي الله عنه، ورغبة لتسليم الأموال للوصي الشرعي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك تجد من الشيعة من يعترض على مصطلح: "حروب الردة"، فيقول السيد المرعشي: " ما ذكره في الوجه الثاني من المقام الثاني من أن أبا بكر هو الذي تولى محاربة المرتدين غير مسلم وما شرحه سابقا مما لا ينشرح به صدر من له قلب، وذلك لأنا لا نسلم أن الذين ارتكب أبو بكر قتالهمكانوا من أهل الردة لما سبق من أن من عدهم أبو بكر وأصحابه من أهل الردة كانوا قسمين قسم لم يؤمن قط كأصحاب مسيلمة وسجاح فهؤلاء كانوا كفارا حربين لم يسلموا قط فإطلاق الارتداد عليهم مخالف للعرف واللغة والثاني قوم منعوا الزكاة من أن يدفعوها إلى أبي بكر وفرقوها على فقراء قومهم لاعتقادهم عدم استحقاق أبي بكر للخلافة وأن المنصوص عليه هو علي (ع)"[شرح إحقاق الحق للمرعشي (3/212).]، وبنفي حروب الردة يتخلص الشيعة من فضيلة للصديق ويوجدون لمعتقدهم موطئ قدم بين سلف الأمة!

وكما أن التفضيل عند الشيعة مطلق من كل وجه، فكذلك الذم والانتقاص لخصوم الأئمة -بزعمهم- ؛ فنسبوا للصحابة كل نقيصة، فمجرد الطعن في الدين لا يروي ظمأ الشيعي ولا يشفي غليله، فبعد الحكم بردة الصحابة "كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى الله عليه وآله إلا ثلاثة". [الكافي (8/246)] وكفر من أحبهم، كقولهم عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: "كافران كافر من أحبهما". [بحار الأنوار (69/137)] تجاوزوا ذلك إلى القدح في أعراضهم وثلبها بما لا يصدر من إنسان سوي فضلًا عن مؤمن، فضلًا عن عالم دين!

ومثال ذلك ما ذكره الخواجوئي في نسب عمر رضي الله تعالى عنه؛ إذ جعله نتاج فاحشة مركبة فقال: "نسب عمر: عمر بن خطاب بن نفيل بن صهاك. من قِبل الأب، ومن جانب الأم: ابن خيثمة بنت خطاب بن نفيل بن صهاك هكذا

من جده خاله ووالده * وأمه أخته وعمته

أجدر أن يبغض الوصي وأن * ينقض يوم الغدير بيعته

بيانه : أن الخطاب هذا أبو عمر وهو ظاهر، وجده لأنه أبو أمه خيثمة، وخاله لأنه أخو أمه خيثمة لأمها، وخيثمة هذه أم عمر لأنه ولدها، وأخته لأبيه لأنها بنت الخطاب، وعمته لأنها أخت أبيه الخطاب". [جامع الشتات ص193].

ولم ينج عرض نبينا صلى الله عليه وسلم فجعلوه غرضًا لسهامهم = فاتفقت الإمامية على ذم بعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولعنهم، ومنهم من جاوز ذلك إلى نسبة الفاحشة إليهن؛ كقول محمد جميل حمود العاملي: "إطباق الأخبار على صدور الفاحشة من بعضهن"! [خيانة عائشة بين الاستحالة والواقع ص 63]

وبعد كل ما سبق أوجب الشيعة لعن الصحابة رضوان الله تعالى عليه، ونسبوا لأئمتهم ترغيب "الشيعة في لعن أعداء أهل البيت بأسمائهم، وذكروا للعنهم ثوابًا عظيما". [الأربعين لمحمد طاهر القمي الشيرازي ص 633] وحضًّا على اللعن فضلوه على الصلاة على النبي وآله! [مجمع النورين لأبي الحسين المرندي ص208] وعلل الشيخ علي الكوراني ذلك قائلًا: "فإن لعن أعداء محمد وآله أفضل من الصلاة عليهم صلى الله عليه وآله؛ لأنه مقدمة لولايتهم ومودتهم، والدعاء لهم والصلاة عليهم".

[جواهر التاريخ لعلي الكوراني العاملي (2/484)]

فيظهر مما سبق خطر التشيع الاثني عشري على دين المرء وأخلاقه وفكره .

اللَّهُمَّ من كان من هذه الأمة على غير الحق وهو يظن أنه عليه، اللَّهُمَّ فرده إلى الحق ردا جميلا حتى يكون من أهله.

مع الشيعة الإمامية في الأصول ٢

القرآن والغلو

حافظ أسدرم

أولاً : القرآن الكريم:

القرآن أصل أصول الدين؛ فهو كلام الله عز وجل العربي الذي أعجز أرباب الفصاحة من فطاحلة شعراء العرب أن يأتوا بمثله، المنزل على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن العناية بالقرآن حفظًا و تلاوة، ونقلاً وتفسيراً، وتفصيلاً لعلومه ومعارفه =علامة على سلوك الجادة والاستقامة؛ فهو الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل، ولا ريب أن الخلاف بين أهل السنة والاثني عشرية خلاف قديم متجذر، وقد هدانا الله سبحانه وتعالى إلى الرجوع إلى الله ورسوله في ما اختلفنا فيه؛ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ **[النساء:59]**

فمن أراد أن يهدى إلى الحق في هذا الخلاف فليتأمل أي الفرقتين أقرب إلى كلام الله عز وجل، إليك بعض الوجوه في المقارنة بين أهل السنة والاثني عشرية في العناية بالقرآن الكريم.

الوجه الأول: نقل القرآن:.

فقد نُقل من طرق السنة دون الاثني عشرية، نقلاً متوترًا يأخذه خالف عن سالف، وهذا النقل كان في الصدور والسطور، وحفاظ القرآن من أهل السنة لا يحصون؛ فلا يخلو منهم بلد على مر القرون، والقرآن منقول بالأسانيد المتواترة حفظًا في الصدور؛ فلا تصح روايته عن المصحف بل لا يعطى الطالب إجازة من شيخه حتى يختم القرآن حفظًا، ولأهل السنة خصيصة في هذا الباب أيضًا هي تصنيفهم كتبًا كثيرة في تراجم القراء (كطبقات القراء لابن السلار الشافعي وطبقات القراء للذهبي وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري)، وهذا لا نظير له عند الاثني عشرية.

الوجه الثاني: في حفظ القرآن في الصدور:

وهو فرع عن الوجه الأول؛ فأهل السنة هم حفاظ القرآن، بدءاً من الصحابة الذين كان منهم عدد ممن جمع القرآن وأتمه حفظًا، ومنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم أورث الصحابة سنة حفظ القرآن واستظهاره لمن جاء بعدهم من التابعين وأتباعهم، إلى زماننا هذا، وحفظ القرآن استظهاراً في القلب خصيصة من خصائص أمة الإسلام دون بقية أهل الكتب كاليهود والنصارى، يفتخر بها أهل السنة في المناظرات ويفحمون بها المعاندين من خصومهم من أهل الكتاب، وحفظ أهل السنة للقرآن تصديق لوعد الله عز وجل بحفظ القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9] إذ إن الحفظ عام يدخل فيه حفظ آحاد الأمة، أما الاثنا عشرية فلا عناية لهم بحفظ القرآن؛ بل إن الواحد منهم قد يصل درجة الاجتهاد دون أن ينظر في القرآن ولو مرة واحدة!



يقول مرجعهم الأعلى علي الخامنئي: "**مما يؤسف له أن بإمكاننا بدء الدراسة ومواصلتنا لها إلى حين استلام إجازة الاجتهاد من دون أن نراجع القرآن ولو مرة واحدة! لماذا هكذا؟ لأن دروسنا لا تعتمد على القرآن**"! [ثوابت ومتغيرات الحوزة العلمية] ويقول المرجع الراحل فضل الله: "**قد نفاجأ بأن الحوزة العلمية في النجف أو في قم أو في غيرهما لا تمتلك منهجاً دراسياً للقرآن**"! [المصدر السابق].

الوجه الثالث: في حفظ القرآن من التحريف:

أهل السنة مجمعون على أن القرآن محفوظ من عند الله لقوله تعالى: : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ومجمعون على كفر من زعم أن القرآن قد زيد أو نقص فيه [انظر كلام القاضي عياض في الشفا (2/647)] أما الاثنا عشرية فهم فريقان في حفظ القرآن:

*فريق قائل بالتحريف:

وهم من كبار علماء القوم ومن قدمائهم؛ على رأسهم علي بن إبراهيم القمي والكليني وهؤلاء من رؤساء القوم، ثم جاء بعدهم جماعة من كبارهم كالمجلسي والكاشاني والحر العاملي [راجع كتاب الشيعة وتحريف القرآن لمحمد بن عبد الرحمن السيف فستجد فيه نصوص القوم]، ولا أبين من رواية الكليني لخبر مفترى على أبي عبد الله الصادق أنه قال: "**إن القرآن الذي جاء به جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وآله سبعة عشر ألف آية**"! [الكافي للكليني (2/634)]، قال المجلسي مصححاً وشارحاً للحديث: "**وفي بعض النسخ عن هشام بن سالم موضع هارون بن سالم فالخبر صحيح، ولا يخفى أن هذا الخبر وكثيراً من الأخبار الصحيحة صريحة في نقص القرآن وتغييره، وعندي أن الأخبار في هذا الباب متواترة معنى، وطرح جميعها يوجب رفع الاعتماد عن الأخبار رأساً، بل ظني أن الأخبار في هذا الباب لا يقصر عن أخبار الإمامة فكيف يثبتونها بالخبر**"! [مرآة العقول للمجلسي 12/525].

وآخرهم النوري الطبرسي وهو رائد القوم ومصنف كتاب "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب"، وهؤلاء الأربعة هم أرباب الموسوعات الأربعة المتأخرة التي لا يستغني عنها طالب حوزوي، ومن هؤلاء أيضاً المحقق البحراني وهاشم البحراني وأبو الحسن العاملي، ونصوصهم كثيرة جداً. [انظر كتاب: الشيعة وتحريف القرآن]

*فريق قائل بعدم التحريف:

وهؤلاء قسمان:

- قسم منهم قال بعدم التحريف حقيقة لترتب مفسدة كبيرة على المذهب والطائفة، وعندي أن مقالاتهم هذه ما هي إلا هروب من الإلزام ببطلان مذهبهم لشناعة هذا القول ولظهور بعد قائله عن الإسلام، ويغلب على ظني أن سبب ذلك إفراد الباقلاني لمصنف في الرد على القائلين بالتحريف من الاثني عشرية، وقد حكى مقالاتهم في كتابه الانتصار -الذي طبع أخيراً- بتفصيل عجيب يطابق ما يذكره النوري و أمثاله، ومن جاء بعد هؤلاء كالحلي وسائر من جاء بعده من متأخري المتأخرين، أما المعاصرون فتكاد تجتمع كلمتهم على نفي القول بالتحريف بعد انتشار ذلك و اشتهاره عنهم!

- وقسم قال بعدم التحريف إما تقية لخداع أهل السنة أو خوفًا على استمرار مذهبهم، وقد ذكر منهم النوري: ابن بابويه والطوسي والطبرسي، واستند إلى ذكر الأول والثاني لروايات يفهم منها القول بالتحريف في مصنفاتهم من غير أن يتعرضوا لها بشيء، وتصنيف الثاني والثالث لكتابيهما الذين ذكرا فيه عدم التحريف على وجه التقية، وظني أن كثيراً من المعاصرين يعتقد بهذا الاعتقاد حقيقة ولكنهم يخفونه مخافة العامة، وقد صرح بعضهم بذلك في مقاطع نقلت عنهم في بعض القنوات الفضائية.

ومع التسليم بأن قول القائلين بعدم التحريف هو من قبيل الحقيقة لا الخداع والتقية، فإن الناظر إلى كلامهم يجد فيه فاقرة أخرى، وهي أنهم يصرحون بأن قرآن المسلمين على غير الترتيب الذي ارتضاه اللَّه! وأنه ما استدل به القائلون بالتحريف من الروايات التي تفيد سقوط آيات من القرآن إنما هي من قبيل التفسير والتأويل، ثم يزعمون أن هذا التفسير منزل من عند اللَّه على علي! فيحكمون بأن جزءاً من الوحي قد ضاع عن الأمة ويبقى مخفياً عنها من زمان المهدي إلى ظهوره! حيث يخرج قرآن عليّ الكامل المتضمن للتفسير المنزل!

- وهذه بعض النصوص الواردة عنهم [من رسالة "الفصام النكد دراسة لحقيقة الأزمة بين علماء الشيعة والقرآن"]:

قال شيخهم الأعظم مرتضى الأنصاري في كتاب الصلاة [طبعة حجرية، انتشارات الرسول المصطفى غ- قم - خيابان ارام - باساز قدس]: "**ولذا أعرضوا عن مصحف أمير المؤمنين (ع) لما عرضه عليهم؛ فأخفاه لولده القائم عليهم السلام وعجل اللَّه فرجه**".

يقول شيخهم علي الكوراني: "**ففي الواقع لم تكن توجد مشكلة اسمها مشكلة جمع القرآن، بل الدولة افتعلتها! (والدولة هنا تعني عمر)؛ الذي لم يقبل نسخة القرآن التي جاء بها عليّ عليه السلام لتكون النسخة الرسمية للمسلمين**". [ألف سؤال وإشكال (1/243)]

ونقل الميرزا الاشتياني الاتفاق بين علماء الاثني عشرية على هذه القضية؛ فقال [في بحر الفوائد في شرح الفرائد (1/98)] "وهؤلاء يجعلون عمدتهم في مقالتهم هذه ما ذكره المفيد [في الإرشاد (2/386)] قال: وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: إذا قام قائم آل محمد عليه السلام ضرب فساطيط لمن يعلم الناس القرآن على ما أنزل الله جل جلاله فأصعب ما يكون على من حفظه اليوم، لأنه يخالف فيه التأليف. وهنا حُق للعاقل أن يتسائل: كيف ستكون الشرعية لهذا القرآن وهو يغاير المصحف المعصوم الذي جمعه إمام معصوم بتوجيه وإشراف نبي معصوم؟!". [الفصام النكد ص24]

ثانيًا: من صور الغلو عند الاثني عشرية:

لا تكاد تجد فرقة منتسبة للإسلام أكثر غلوًا من فرقة الاثني عشرية؛ فتجد عندهم مظاهر الغلو متجذرة في أصول الدين بل حتى في بعض الفروع الفقهية، وسنذكر في هذا المقال بعض مظاهر الغلو عند هذه الفرقة موثقة من مصادرهم الأصلية المعتبرة.

الغلو في الإمامة:

فقد جعلوها من أصول الدين وأركان الإيمان، روى الكليني بسنده عن أبي جعفر قال: "بني الإسلام على خمس: على الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ والولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية، فأخذ النّاس بأربع وتركوا هذه -يعني الولاية-"! [الكافي (2/18)]، واتفقوا على أنها أعظم من النبوة [الأنوار النعمانية (2/656)] وجعلوها مدار قبول الأعمال [الأربعين ص591] ولذلك أجمعوا على خلود من لم يؤمن بإمامة الاثني عشر في النار [بحار الأنوار (65/245)].

الغلو في الأئمة:



تتخذ مظاهر الغلو في الأئمة لدى الاثني عشرية صورًا عديدة، أشدها غلوًا يظهر في إعطائهم صفات الربوبية والألوهية؛ كالخلق والرزق والإماتة والإحياء بل والتصرف في الكون، فضلاً عن محاسبة الخلق يوم القيامة، هذا في الربوبية، أما في الألوهية فإن كتب الأدعية والزيارات مشحونة بالتوجه إلى الأئمة بالدعاء وطلب قضاء الحوائج والاستغاثة بهم في رفع الضر وشفاء الأمراض وتجويز الطواف حول قبورهم و الاتجاه في الصلاة إليها، إلى غير ذلك من الطوام التي شحنت بها كتبهم. [للتفصيل: أصول مذهب الشيعة الإمامية (2/425-526)]

وإضافة إلى ذلك فقد غلا الإمامية في أفعال أئمتهم نتيجة لاعتقادهم بإمامتهم؛ فأكسبوهم صفة العصمة التي لم تقتصر على العصمة في التبليغ؛ بل حتى العصمة من السهو والنسيان. [بحار الأنوار (25/211)]

أما ادعاء المعجزات و الخوارق فحدث ولا حرج، ما عليك إلا أن ترجع إلى كتاب "**مدينة المعاجز**" حتى ترى مئات الروايات الخرافية والأسطورية التي تثبت للأئمة كل الخوارق، حتى وهم في بطون أمهاتهم.

ولم يقتصر الغلو على ذوات المعصومين؛ بل حتى في بعض الأماكن المتعلقة بهم؛ ففضلوا كربلاء على الكعبة [انظر بحار الانوار 101/107] بل فضلوا زيارة قبر علي الحسين على الحج والعمرة .

الغلو في مسائل فرعية:

نقتصر إلى الإشارة إلى مسألتين فرعيتين غلا فيهما الاثنا عشرية:

المسألة الأولى: التقية؛ وهي رخصة تبيح للمسلم أن يخفي إسلامه حين يخاف على نفسه من الموت، أما الاثنا عشرية فجعلوها أكبر من ذلك؛ فهي عندهم تسعة أعشار الدين [الكافي 2/217] وأن من تركها كمن ترك الصلاة [الاعتقادات لابن بابويه ص114]، وجعلوا كل قول يخالف هواهم ويخالف أهل السنة صادراً عن الأئمة من باب التقية (**راجع التهذيب والاستبصار للطوسي؛ فلا يكاد يخلو باب من حمل الروايات الموافقة لأهل السنة في الفقه على التقية**)، وأحلوا لنفسهم الكذب الصريح على عامة الناس بدعوى التقية، وابتدعوا أصنافاً عجيبة من أنواع التقية كالتقية المداراتية [الرسائل للخميني 2/195] التي يستعملها أصحاب التقريب؛ فتجد أحدهم يثني على الصحابة، أو ينكر بعض أصول عقائدهم؛ تقية لتحسين صورة المذهب في أعين المخالفين.
[للتفصيل انظر: كتاب "مسألة التقريب بين السنة والشيعة"]

المسألة الثانية: المتعة؛ فقد استباحوا فروج النساء، سواء كنّ من المسلمات أو كتابيات؛ بل حتى المجوسية [تهذيب الأحكام للطوسي (7/256)]، وجعلوا لها أحكاماً خاصة، فأباحوا الجمع بين أكثر من أربعة متعة، وأباحوا أن تكون مدتها مرة واحدة، مثل الزنا! [فروع الكافي (2/46)]

نظرية ولاية الفقيه البناء التاريخي والعقدي

د. أحمد سيد أحمد

ولاية الفقيه من النظريات التي نشأت في المذهب الشيعي الاثني عشري وهي من النظريات السياسية التي تقوم على أصول عقدية، ورؤى فكرية خاصة بطائفة الشيعة الاثني عشرية؛ نظرًا لارتباطها الوثيق بعقيدة الإمامة الشيعية التي تمثل حجر الزاوية في المذهب الشيعي عامة والاثني عشري بصفة خاصة.

وولاية الفقيه تعني: "قيام الفقيه الجامع لشروط الفتوى والقضاء مقام الحاكم الشرعي، وولي الأمر، والإمام المنتظر في زمان غيبته في إجراء السياسات، وسائر ما له من أمور، عدا الأمر بالجهاد الابتدائي، وهو فتح بلاد الكفر بالسلاح، مع خلافٍ في سعة الولاية وضيقها ". [أحمد فتح الله: معجم ألفاظ الفقه الجعفري، ص453]

وعليه فإن المراد من لفظ الولاية الوارد في عبارة "ولاية الفقيه" عند الشيعة الاثني عشرية: أي الولاية التي تؤدي مهام الإمامة، باعتبار أنها حق ثابت للإمام، والفقيه نائب عنه.

وولاية الفقيه هي الصورة العملية للحكومة الإسلامية التي نادى بها الخميني داخل الكيان الشيعي الاثني عشري، والتي قامت عليها الثورة الإسلامية في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وهي نظرية لها جذور في التراث الشيعي، حيث مرت بمحطات أساسية وعلامات بارزة على يد الكركي (868هـ = 1463م، - 940هـ= 1534م) والنراقي (1185هـ =1771م، - 1245هـ - 1828م) والخميني. وذلك عكس ما هو مشهور بأن الخميني هو أول داعٍ لها، وإن كان الخميني يعد متممًا لها ومكملاً لبنيانها، وإليه يرجع الفضل في تحويلها من مقولة نظرية مجردة إلى حركة عملية انقلابية ثورية، وبرنامج سياسي شامل. ومن الخطأ بمكان تجاهل هذا الدور التاريخي لتلك النظرية، وإسهامات علماء الشيعة فيها عبر قرونٍ طويلة، مع إقرارنا بالخصيصة الخمينية.

فقد نذر الخميني حياته لهذه النظرية، وضمنها أشهر مؤلفاته وهو كتابه "الحكومة الإسلامية" والمعروف باسم ولاية الفقيه، والذي لخص فيه الخميني محاضراته التي كان يلقيها على طلابه في النجف الأشرف في العراق.

بداية ولاية الفقيه:

يرى بعض علماء الشيعة أن البداية الفعلية لنظرية ولاية الفقيه ظهرت في عصر حضور الأئمة، بل على أيديهم. فمن خلال تتبّع تاريخ تعامل الأئمة مع شيعتهم يظهر أنّهم قد مهّدوا للنيابة العامّة للفقهاء منذ زمن العسكريَّيْن (يقصد بالعسكريَيْن عند الشيعة الإمام علي بن محمد الهادي، وابنه الإمام الحسن بن علي العسكري)، وزمن الغيبة الصغرى، كي لا تفاجئ صدمة الغيبة الكبرى شيعة أهل البيت مما قد يؤدّي إلى ارتداد كبير وارتباك في أوساطهم. [المرجعية والقيادة، كاظم الحائري ص152، 153 بتصرف يسير] وذلك عن طريق الروايات التي أشارت إلى فضل العلماء، وعلو منزلتهم ومكانتهم، من أمثال مقبولة عمر بن حنظلة [من محدّثي الإمامية، عدّه الطوسي في رجاله تارة من أصحاب الباقر، وتارة أخرى من أصحاب الصادق] والمشهورة، وغيرهما من الروايات. فهذه الروايات التي وردت على لسان الأئمة حسب معتقد الشيعة قد هيَّأت الجو الشيعي لتقبُّل نظرية ولاية الفقيه على المستوى النظري العام.

أما عن المستوى العملي الخاص فإنه يمكن القول بأن أُولى معالم أو إرهاصات نظرية النيابة العامة أو ولاية الفقيه كانت في مرحلة الغيبة الصغرى، متمثلة في شخص السفراء الأربع.

فالحديث عن النيابة العامة للفقهاء عن الإمام المهدي في عصر الغيبة الكبرى هو فرع لثبوت النيابة الخاصة التي ادعاها الوكلاء الأربعة في عصر الغيبة الصغرى. [تطور الفكر السياسي الشيعي: أحمد الكاتب، ص426 بتصرف] ففي مرحلة الغيبة الصغرى (255هـ : 328هـ أو 329هـ) كان الإمام الغائب يمارس دوره القيادي من خلال نظام السفراء؛ حيث تعتقد الشيعة الاثني عشرية أن الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري قد غاب غيبةً صغرى قبل غيبته الكبرى التي انقطعت فيها أخباره، وكان يتصل خلال غيبته الصغرى بأتباعه عن طريق نواب أربعة، أو سفراء بينه وبين أتباعه، تسلموا النيابة واحدًا إثر الآخر، وكان إذا أراد أحد من شيعته أن يسأل الإمام عن شيءٍ يتوجه بسؤاله إلى نائبه الوقتي، وهو يتولى مراسلة الإمام، ثم بعد ذلك تخرج رسائل من قِبل الإمام عليها توقيعه، بالإجابة عن تلك الأسئلة.



والسفراء هم: عناصر مؤهلة خاصة اختارها الإمام ليكونوا حلقة وصل بينه وبين شيعته.
وقد تولى مهمة السفارة في مرحلة الغيبة الصغرى أربعة أشخاص، وهم:

1- عثمان بن سعيد العمري: وكانت مدة سفارته من سنة 260هـ حتى سنة 265هـ.
2- محمد بن عثمان بن سعيد العمري: وكانت مدة سفارته من سنة 265هـ حتى سنة 305 هـ.
3- الحسين بن روح النوبختي: وكانت مدة سفارته من سنة 305هـ حتى سنة 326هـ.
4- علي بن محمد السمري: وكانت مدة سفارته من سنة 326هـ حتى سنة 329هـ.

ومع أن عملية السفارة التي يؤمن بها الاثني عشرية لم تدم -استمرت ما يقرب من ثلاثٍ وسبعين أو أربعٍ وسبعين سنة- إلا أنها قد مهَّدت للقول بنظرية ولاية الفقيه، ولكن سرعان ما انقطعت السفارة، وجاء الإعلان عن الغيبة الكبرى على لسان آخر السفراء. [راجع: التشيع نشوؤه – مراحله- مقوماته، عبد الله الغريفي، ص378] وكانت الغيبة الكبرى هي الأخرى دافعًا لبزوغ نجم نظرية ولاية الفقيه.

فمنذ الإعلان عن الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر بدأت تظهر على الساحة الشيعية نظرية جديدة تخالف معتقدهم في الإمامة، وهي نظرية (التقية والانتظار) حيث إنهم يعتقدون أن الأرض لا تخلو من حجة يقيم حكم الله على خلقه، ولكن بإعلان الغيبة الكبرى وظهور عقيدة التقية والانتظار أصبحت فاعلية الإمام مجمدة، والمسئولية المناطة به من تنفيذ أوامر الله وأحكامه متوقفة، وحُرِّم على الشيعة منذ هذا الوقت تجاوز سلطة الإمام، والتعدي على الأمور التي تدخل ضمنًا في اختصاصه، ويتوقف فعلها على وجوده؛ مثل إقامة الحدود، وتولي القضاء، وأخذ الخمس، وأداء الجهاد، وإقامة صلاة الجمعة، إلى غير ذلك من الأمور التي يتوقف فعلها على وجود الإمام، أو من ينوب عنه بتفويضٍ مباشرٍ منه، وهي ما تُعرف عند الشيعة "بالولايات السبع". الأمر الذي أدى إلى إحداث حالة من الجمود داخل المجتمع الشيعي، وهذا ما أعلنت ولاية الفقيه الثورة عليه، ولكن هذه الثورة لم تظهر دفعةً واحدة، وإنما تمت من خلال مرحلتين:

المرحلة الأولى : فتح باب الاجتهاد.

المرحلة الثانية: الثورة والخروج على بعض آثار نظرية التقية والانتظار.

وبدأ الأمر بمسألة جواز التعاون مع السلطان القائم، أو جواز قبول الولاية من جهة الظالمين، وبخاصةٍ في إقامة الحدود، وتولي منصب القضاء.

فمسألة العمل مع سلطان الجور وتولي الحدود من قِبَله كانت من المواضيع الأولى التي تحدَّث فيها علماء الشيعة عن دور الفقهاء في النيابة عن الغائب، وكانت من أولى المواضيع التي خرجوا عبرها من كهف الغيبة، وتلتها سائر المواضيع الأخرى.

وقد خطت نظرية ولاية الفقيه خطوات واسعة أضحت معالم بارزة في تاريخها على يد كل من المحقق الكركي، وصولًا إلى المحقق النراقي، وانتهاءً بآية الله الخميني، والذي اهتم اهتمامًا خاصًّا بنظرية ولاية الفقيه وأولاها من وقته الكثير؛ وضمنها أشهر مؤلفاته "الحكومة الإسلامية"، ودعا فيه صراحة إلى إقامة الحكومة الإسلامية المستندة على مبدأ ولاية الفقيه، وحدد أصولها الفقهية وأسسها التي تقوم عليها.

حيث قال: " فللفقيه العادل جميع ما للرسول -صلى الله عليه وسلم- والأئمة مما يرجع إلى الحكومة والسياسة، ولا يعقل الفرق، لأن الوالي -أي شخص كان- هو المجري لأحكام الشريعة، والمقيم للحدود الإلهية، والآخذ للخراج وسائر الماليات، والمتصرف فيها بما هو صلاح المسلمين. فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يضرب الزاني مائة جلدة، والإمام كذلك، والفقيه كذلك، ويأخذون الصدقات بمنوال واحد، ومع اقتضاء المصالح يأمرون الناس بالأوامر التي للوالي، ويجب إطاعتهم". [المصدر السابق: ج2 ص467]

وهكذا ينتهي الخميني في بحثه عن نظرية ولاية الفقيه إلى تقرير أن الفقيه له كل ما للرسول -صلى الله عليه وسلم- والأئمة الاثني عشر فيما يتعلق بأمور الحكومة والسياسة؛ فهو الولي في عصر الغيبة، وهو الذي يملك القرارات المصيرية التي تتعلق بالدولة الإسلامية، ولا يملك أحد كائنًا من كان أن يخالفه أو يعترض على حكمه، ومن يتجرأ على ذلك فقد وقع في حرج شرعي، ويكون بمثابة من اعترض على أمر الإمام الغائب، وخالف حكمه.

وهذه هي الصورة الأخيرة التي استقرت عليها نظرية ولاية الفقيه، وقامت على أساسها الثورة التي قادها الخميني في إيران، وانتهت بالإعلان عن إقامة الحكومة الإسلامية، والتي كان الخميني مرجعها الأكبر، وفقيهها الأول النائب عن الإمام الغائب.

الفقيه النائب

صلاحيات مطلقة وسلطات نافذة

وقد أولى علماء الشيعة المؤيدون لخط ولاية الفقيه الفقيه النائب صلاحيات واسعة بل ومطلقة في كل الشئون المتعلقة بالدولة الإسلامية؛ فله الإشراف على جميع المراكز الأساسية، وله حضور فاعلٌ ومؤثر فيها.

فالفقيه الولي بناء على هذا له الولاية الشرعية العامة في شئون المسلمين؛ السياسية، والاجتماعية، والتربوية، والاقتصادية، والحربية، والتنظيمية، والحياتية بشكلٍ عام. [التشيع نشوؤه - مراحله- مقوماته: عبد الله الغريفي، ص382]

وقد أشار قبل ذلك النراقي إلى أن الفقيه العادل له الولاية على كل ما كان للنبي -صلى الله عليه وسلم- والإمام إلا ما أخرجه الدليل من إجماعٍ أو نصٍّ أو غيرهما، وله الولاية كذلك على كل فعل متعلق بأمور العباد في دينهم أو دنياهم، ولا بد من الإتيان به، إما عقلًا، أو عادةً أو شرعًا. [انظر: عوائد الأيام، النراقي، ص188، 189]

ويقول الخميني: "وإذا نهض بأمر تشكيل الحكومة فقيه عالم فإنه يلي من أمور المجتمع ما كان يليه النبي -صلى الله عليه وسلم- منهم، ووجب على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا، ويملك هذا الحاكم من أمر الإدارة والرعاية والسياسة للناس ما كان يملكه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأمير المؤمنين؛ على ما يمتاز به الرسول والإمام من فضائل ومناقب خاصة".

[الحكومة الإسلامية، الخميني، ص72]

مستخلصات النظرية

وعلى ضوء ما سبق فإن من ينظر بعناية إلى نظرية ولاية الفقيه، ويتابع سيرها منذ بوادر ظهورها وإلى الآن يجد أنها:

-تمثل من وجهة نظر فقهية وتاريخية شذوذًا عن مسلمات المذهب الشيعي، وخروجًا عن اتجاهاته العامة، بل وأخص خصائصه، ألا وهي عقيدة الإمامة النصية والتي تنتهي عند الشيعة بالإمام الثاني عشر صاحب الغيبتين؛ فنظرية ولاية الفقيه مع أنها مبنية على الإمامة والمهدوية، إلا أنها جمدت هاتين العقيدتين من الناحية العملية.

-أنها تكشف عن المأزق الخطير الذي تعيشه العقلية الشيعية المعاصرة في التوفيق بين الإمامة بمفهومها العريض عندهم وما لها من عصمة، وبين ولاية الفقيه بصلاحيته المطلقة التي تشابه إلى حدٍّ كبير صلاحيات الإمام، وبخاصةٍ فيما يتعلق بعدم مقدرة أحدٍ على محاسبته، وهذا يعني أن وجود الفقيه المجتهد جعل من رجوع الإمام الغائب أمرًا لا حاجة له.

وبعبارة أخرى يمكننا القول: إن ولاية الفقيه نسخت من غير إعلان عقيدة المهدي المنتظر، أو على الأقل جمّدتها من الناحية العملية. [راجع: عقيدة العصمة بين الإمام والفقيه، محمد الخطيب، ص37].

-بطلان المنظومة المذهبية التي قامت عليها نظرية ولاية الفقيه المنصوب من قبل الأئمة، والنائب عن الإمام الغائب، وهذا البطلان راجع في الحقيقة إلى عدة أمور:

أ- بطلان عقيدة الإمامة النصية، وتهافت دعوى النص والوصية.

ب- انتفاء وجود محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر عند الشيعة، ومهديهم المنتظر، وذلك من خلال القواطع التاريخية، وضعف سند الروايات التي أثبتت وجوده، والاضطراب في متنها، وكذلك الأساطير التي ملئت بها.

ج- تهافت عقيدة الغيبة بشعبتيها عن إثبات وجود الإمام الثاني عشر.

-أن البديل لنظرية ولاية الفقيه يتمثل في وجود حكومة إسلامية عادلة تسير على ضوء مقررات الشريعة الإسلامية، ووفق مناهجها وضوابطها، ولا يشترط بحال من الأحوال أن يكون على رأسها فقيه، نعم لو وجد فقيه يمتلك المؤهلات السياسية والكفاءة الإدارية اللازمة لقيادة الدولة فلا بأس؛ بل هو أحق طالما أنه سيتولى منصبه بتفويضٍ من الأمة، وموافقةٍ من أهل الحل والعقد، ولكن هذا لا يعني قصر حق رئاسة الدولة الإسلامية وقيادتها على طبقة الفقهاء بأشخاصهم وأعيانهم، أو أي طبقة أخرى، فحق تبوء منصب القيادة مكفول لكل من يمتلك المقدرة، وتتوفر فيه الصفات والشروط التي اشترطها العلماء في كل من يلي أمر الأمة الإسلامية. [لمزيد من التفصيل راجع: د/ أحمد سيد أحمد علي، ولاية الفقيه عند الشيعة الاثني عشرية وموقف الإسلام منها]

بل أنتم بعربيتكم تفرحون

أحمد سالم

الحمد لله وحده..

(1)

من الخصال الحسنة في الناس طلب العربية والتحلي بها وذم العامية والتجافي عنها، خاصة مع ما للعامية من خطر على الناس وصلتهم المعنوية والمادية باللسان الذي نزل القرآن به، وكذلك مع كون العامية هي أحد الأسلحة الماضية في أيدي من يريدون لفت الناس عن دينهم وتاريخهم وثقافتهم.

أحيانًا يصل هذا إلى نوع من الغلو يمنع على الناس حتى استعمال العامية أو اللغات الأجنبية في الكلمة بعد الكلمة، وهذا النوع من الاستعمال لا يُذم ولا يُنهى عنه؛ بل كان بعض أئمة العربية من المعاصرين يعده كالملح في الطعام، والمتتبع لألسنة العلماء عبر التاريخ يجد هذا في كلامهم لا يستنكفون منه ولا ينهون عنه.

وأحيانًا أخرى يصل هذا إلى نوع من العجلة غير المؤسسة؛ كالتي تجدها في المطالبات بتعريب العلوم بدون بنية تحتية وترتيبات فوقية تعين على هذا، في نوع من الخطاب التعبوي الذي لا يصلح التعامل به مع مثل هذه الأبواب الدقيقة الاستحقاقات والتبعات.

(2)

في وسط هذا الزحام الذي لا ننكر صوابه والخير الذي يُرجى من ورائه =غفل الناس عن قضية مهمة جدًّا، الغفلة عنها تجر على الدين والوحي خطرًا هو عندي ليس أقل من خطر العامية إن لم يفُقْه خطرًا ويربُ عليه ضررًا.

ذلك الخطر الذي غفل عنه الناس هو أن عربيتهم تلك التي بين أيديهم بها يكتبون ويقرأون ويخطبون هي في أكثرها ألسنة مولدة حظها من العربية أنها جارية على قياس كلام العرب في كلامها؛ ولكنها مفارقة مغايرة في مواضع كثيرة للعربية التي نزل بها القرآن وبُعث النبي صلى الله عليه وسلم في القوم الذين يتكلمون بها، وتكلم بها الصحابة والتابعون.

وأصل هذا: أنك لتكون متكلمًا بالعربية الأولى التي نزل بها القرآن لابد أن تستعمل لسان العرب في الطبقة التي بُعث فيها النبي صلى الله عليه وسلم استعمالًا مطابقًا.

ومعنى الاستعمال المطابق هاهنا هو أن تستعمل نفس ألفاظهم في الدلالة على نفس المعاني التي استعملوا هم هذه الألفاظ بإزائها؛ فإن استعملت ألفاظًا لم يكونوا قد عرفوها بل وُلِّدت وحدثت بعدهم =لم يكن هذا هو لسان العرب الذي يُمدح استعماله لصلته بالوحي وإعانته على فقهه.

وكذا إن استعملت تلك الألفاظ لكن في الدلالة على معنى لم يكونوا هم يستعملون هذا اللفظ للدلالة على هذا المعنى وإنما حدث هذا الاستعمال الدلالي بعده =لم يكن هذا هو لسان العرب الذي يُمدح استعماله لصلته بالوحي وإعانته على فقهه.

وهذه الاستعمالات غير المطابقة ليست هي العربية التي يُفرح بها، وإن كانت ممدوحة لمجانبتها للعامية، إلا أنها ليست هي عربية القرآن والوحي وقوم النبي والنبي وصحابته، وإن كانت تعد من جملة العربية؛ لجريانها على أقيسة العرب في كلامها من حيث المستويات الصرفية والنحوية والصوتية؛ لكن المستوى المفقود هنا هو المستوى الدلالي وهو الذي يفرق بين عربية القرآن وبين العربيات التاريخية التي حدثت وتحدث وستظل تحدث كما هو الحال في لغات العالم جميعًا.

هذه العربية الحادثة التاريخية كانت كفيلة بإزالة لغة العرب قوم النبي صلى الله عليه وسلم وطمسها من النفوس كما فعلت اللغات المحلية الأوربية مع اللاتينية؛ بل كما فعلت الإنجليزية المعاصرة مع إنجليزية شكسبير مثلًا، لولا القرآن وتداوله بين الناس قراءة وحفظًا واستماعًا وشرحًا وبيانًا.

فالقرآن المحفوظ هو الذي ضيق دائرة اختلاف الألسنة العربية، وهو الذي وسع من دائرة الاشتراك في الألفاظ والدلالات، ولولا القرآن المحفوظ =لما فقه عرب اليوم من لسان العرب قرن النبي شيئًا يذكر.

قال محمد بن سلام: "قال أبو عمرو بن العلاء: ما لسانُ حِمْير وأقاصي اليمن لسانِنا ولا عربيتهم عربيتنا. قال ابن سلام: فكيف بها على عَهْد عاد وثمود؟".

(3)

فصورة المسألة أن من بعد قرن النبي وأصحابه =استحدثوا ألفاظًا لم تك تعرفها العرب قرن النبي. واستحدثوا دلالات لألفاظ كانت موجودة لكن بغير أن تدل على هذه المعاني الحادثة. ووسعوا وضيقوا دلالات ألفاظ كانت موجودة بدلالات أضيق أو أوسع. وكل هذا هو من اختلاف الألسنة.

والله خاطبنا باللسان الأول، وواجب على العرب بعد هذا اللسان الأول ما هو واجب على الأعاجم =من طلب فقه هذا اللسان الأول.

والتوليد نوعان:

الأول: استعمال اللفظ العربي القديم بإزاء معنى لا تعرفه العرب الأولى، ومثاله: استعمال لفظ (السيارة) للدلالة على العربة الميكانيكية. وهذا هو توليد الدلالة.

الثاني: إحداث لفظ لم تعرفه العرب، بتركيب الحروف العربية تركيبًا لا تعرفه العرب الأولى؛ سواء جهلوا اللفظ وعرفوا المعنى الذي وضع هذا اللفظ بإزائه كلفظة (الإباحة)، أم كان اللفظ والمعنى جميعًا مولدين كلفظ (التلفاز)، وهذا هو التوليد اللفظي.

وثم تقاسيم أُخَر تكون من حيث تضييق وتوسيع الدلالة القديمة؛ كما نجده في تضييق لفظ السُّنة مثلًا، وشيوع استعماله إزاء المندوب على خلاف دلالته الأوسع في اللسان الأول.

وكل ذلك توليد ليس هو من كلام أهل اللسان الأول.

وهذا الاختلاف بين لسان العرب قوم النبي صلى الله عليه وسلم الذي نزل به الوحي وبين الألسنة المولدة بعده هو الذي يسمى بالتغير الدلالي أو التطور الدلالي، وهو ضرب من ضروب اختلاف الألسنة المنصوص عليه في القرآن، وأسرع ما تختلف فيه الألسنة هو ما تدل عليه الألفاظ؛ فاللفظة الواحدة قد تدل بلسان قوم على غير ما تدل عليه بلسان قوم آخرين، ويختلف ما تدل عليه اللفظة الواحدة بلسان نفس القوم من قرن إلى قرن، وقد يحدث ذلك الاختلاف في قرن واحد منهم، وقد يحدث في قرون متقاربة، وكلما كان أولئك القوم أكثر عزلة عن غيرهم =قل اختلاف لسانهم من قرن إلى قرن، وظلت أكثر ألفاظهم تدل بلسان القرن اللاحق على نفس ما كانت تدل عليه بلسان القرن السابق.

وأعظم ما تختلف به الألسنة هو اختلاط الأمم، ونقل الكتب من لسان إلى لسان؛ فالناس ينقلون الألفاظ كثيرًا إلى غير ما كانت تدل عليه عند غيرهم، وبذلك النقل تختلف ألسنتهم، ولا يظل اللسان بعد ذلك النقل لسانًا واحدًا، ولكنه يصير ألسنة مختلفة، وإذا نقل رجلٌ لفظة أو ألفاظًا إلى غير ما تدل عليه عند قوم اختلف لسانه عن لسانهم، وحدث لسان جديد.

ونقل الألفاظ إلى غير ما كانت تدل عليه قد يكون خطأ أو جهلًا باللسان الأول، أو خلطًا بينه وين لسان آخر، وقد يكون عمدًا، وذلك النقل كله خطأه وعمده لا ميزان له، ولا يجري على طريقة واحدة؛ بل قد يكون ما نقلت اللفظة إليه أبعد شيء عما كانت له، ولو كان نقل الألفاظ إلى غير ما كانت تدل عليه له ميزان يوزن به، أو له طريقة واحدة أو طرق معدودة يجري عليها -لكان ما نقلت إليه اللفظة باللسان الآخر يدلُّ على ما كانت له باللسان الأول، ولكن ذلك النقل لا ميزان له ولا يجري على طريقة واحدة ولا طرق معدودة، وهو يكون بأوجه من العمد والخطأ لا سبيل إلى حصرها؛ فما نقلت اللفظة إليه باللسان الآخر لا يهدي إلى ما كانت له باللسان الأول، ولا يدل عليه، والمتكلم بلسان قوم لا يعني إلا ما تدل عليه الألفاظ بلسان أولئك القوم، ولا يخطر بقلبه ما تدل عليه بلسان قوم آخرين لا قبلهم ولا بعدهم، وإذا كان اللسان الأول محفوظًا =عُلم ما كانت تدل عليه الألفاظ أولًا، وما نقلت إليه بعد ذلك، وأما إذا كان اللسان الأول ليس محفوظًا =فلا يعلم ما كانت تدل عليه الألفاظ أولًا، ولا يدري أنقلت أم لم تنقل، فذلك النقل لا سبيل إلى علمه إلا في لسانين محفوظين، أحدهما قبل الآخر.



ولسان العرب الذي حفظه الله تعالى لنا هو لسان العرب الذين بعث فيهم النبي وهم قومه، ولا ريب أن لسان أولئك العرب كان يختلف عن لسان العرب القديم البائد قبلهم، ولسان العرب قبلهم لم يحفظ لنا؛ فلا ندري ما كانت تدل عليه الألفاظ بلسان العرب البائد، ولا ما نقل منها إلى غير ما كان يدل عليه، ولا ما لم ينقل، ولو حفظ لسان العرب البائد = لم ينفع في دين الله شيئًا، والله تعالى أنزل كتابه وبعث نبيه بلسان العرب الذين بعث فيهم النبي وليس بلسان العرب قبلهم ولا بعدهم؛ فما تدل عليه الألفاظ في كتاب الله تعالى وحديث رسوله هو ما كانت تدل عليه عند أولئك العرب الذين بعث فيهم النبي وليس ما كانت تدل عليه قبلهم.

(4)

فثبت مما تقدم أن هذه العربية التي نكتب بها ونتكلم ونخطب هي عربية تاريخية حادثة ليست مطابقة للسان العرب الأول، ومن هنا كان وجه خطرها على الدين والوحي؛ ذلك أنها تغر المتكلم بها أنه يتكلم العربية وقد تجافى عن العامية، بينما الحال أن بينه وبين العربية التي يفقه بها الوحي ويفسر بها الدين مفاوز، لا تبعد كثيرًا عن المفاوز التي بين العامية واللسان الأول.

من هنا لم يجز لنا أن نفرح بعربيتنا هذه التي نتكلم بها؛ حتى نطلب ما استطعنا عربية النبي وقومه فقهًا وحديثًا وكتابة، ومن فاتته تلك العربية في حديثه وكتابته =لم يجز أن تفوته في تفقهه وطلبه لتفسير الوحي والدين؛ ذلك التفسير الذي لا يجوز أن يجري إلا على سَنن تلك العربية الأولى.

ومن فاتته تلك العربية في حديثه وكتابته ينبغي ألا تفوته إلا وهو بصير بها وبأهميتها وبعدم غنى عربيته عنها، وبأن العامية ليست أكبر خطرًا من عربيته التي تباعدت عن اللسان الأول.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقني وإخواني اتباع الهدي الأول فهو خير الهدي، وهو ما اختاره الله ورسوله من بين السنن ليكون هديًا للعالمين؛ فأي توفيق يصيب من حرص عليه فلم يُجاوزه وأي خسران يصيب من عدل عنه إلى غيره؟!

وأسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقني وإخواني اتباع اللسان الأول فهو خير الألسنة وأحسنها وأصوبها، وهو ما اختاره الله ورسوله للتعبير عما أرادوه من المعاني؛ فأي توفيق يصيب من حرص عليه فلم يُجاوزه وأي خسران يصيب من عدل عنه إلى غيره؟!



ماذا أقرأ

عصام المغربي

إذا كنت تنتظر من هذا المقال "اقرأ هذا وذاك وإياك وهذا وذاك" فسيخيب ظنك أيها القارئ العزيز! فإنما أنشدُ فهمَ هذا السؤال وفحص بعض جوانبه كي نعرف، أو نحاول أن نعرف لماذا يتكرر هذا السؤال في مواقع التواصل الاجتماعي، وفي الجلسات الخاصة، وفي قاعات الدرس وفي غيرها. وهو سؤال خداع إذا أمعنتَ النظر. وهو أيضا حمّال دلالات يتلمس به الكلِف بمجال الثقافة ظواهر كثيرة.

ثورة المعلوميات ومسألة القراءة:

من باب الإنصاف أن نذكر أن المستشرقين كانوا مساهمين حقيقيين في نشر التراث الإسلامي، ولم يخلُ فِعلهم من تشويه لهذا التراث متعمد وغير متعمد. فأما الذي صنعوه عن سابق تدبير فمثاله ما ذكر المستشرق "آربري" في ختام كتابه "المعلقات السبع" عن "مرجليوث": "إن السفسطة وأخشى أن أقول الغش في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ مرجليوث أمر بيّن جدًّا، ولا تليق البتة برجلٍ كان ولا ريب من أعظم أئمة عصره". وأما الذي فعلوه بلا طوية سوء فلأنهم بنو لسان أعجمي وتذوق العربية عنهم محجوبٌ، ولن يستطيع أكثرهم ألمعية إليه سبيلًا.

وكان بعد هذا زمن علا فيه نجم التحقيق العربي، فتصدى لإخراج كنوز الكتب رجال؛ كالشيخ المرصفي، ورشيد رضا، ثم جاء آل شاكر: أحمد محمد أبو الأشبال، ومحمود محمد أبو فهر، فصار لفن التحقيق مذاق آخر وسبيل متميز، ما لبث أن استقبل أفواجًا من النابهين ليس هنا مجال ذكر جميعهم.

ثم انتقل همُّ التحقيق إلى أقوام يرومون الربح وحده، وانتشر ما يسميه الشيخ محمود شاكر : "السطو الحر"، وثقلت النسخ وصار ما كان من قبلُ كتابًا صغيرًا يباع اليوم في المجلد والمجلدَين، وليته سَلِمَ من التصحيف والعي!

في قلب هذه الغزارة في الطباعة، وانتشار الكتب بجيدها وقبيحها، يتيه القارئ "العادي" ويضل. وكأن هذا كله ليس بكافٍ، فانضافت ثورة الكتب المصورة على النت لتزيد المسكين حيرةً فوق حيرته! فصار السؤال "ماذا نقرأ" أشد إلحاحًا وأكثر خطورة.

استغلال مسألة "ماذا أقرأ" وأمركة الثقافة:

وكما ليس يخفى على أحد، انقض على هذه الحيرة التي تعصف بالناس سماسرة الثقافة ولصوص المعرفة؛ فاستوردوا الطريقة الأمريكية في "دورات تعليم القراءة" و"الكتب المعينة على القراءة"، وانقض خبراء تطوير الذات على هذه الغنيمة؛ فصار القارئ الذي كان يسأل "ماذا أقرأ؟" يقرأ "كيف أقرأ، ومتى أقرأ، وأين أقرأ"، وغير هذا من العبث بعقول الناس وبجيوبهم. وكأن هذا القارئ "العادي" المسكين جنديٌ كُتب عليه أن يتدرب فقط، ولم يعرف الحرب قط! وليس الذئاب لصوص المعرفة وحدهم، بل شاركهم في "الجريمة" جُهال منتديات الإنترنت ومشايخها. نكرة يفتي نكرةً، فيحذره من كتب زيد وينهاهُ عن كتب عمرو. وصار تقييم الكُتاب بيد كل واحد يجتمع فيه شرطان: توفره على إنترنت وجرأته على القول في ما لا يدري!

هل سؤال "ماذا أقرأ" مرفوض؟

السؤال في نفسه ليس قبيحًا كله، بل هو بالغ الوجاهة أحيانًا، خصوصًا في منهجية طلب العلم، وهذه يُحددها الشيخ للطالب حسب تجربة الأول ومعرفته بالثاني. ولعله يبدلها ويعدل عليها لتلائم طلابه وواقعهم ومستقبلهم وقدراتهم وهكذا. والسؤال قد يكون معتبرًا كالخلاف المشهور بين محمود شاكر وتلاميذ محمد عبده حول منهجية علم البلاغة، هل يُستغنى عن شروح التلخيص بكتابَي الجرجاني أم لا.

لكن الغالب على من يسأل "ماذا أقرأ" -حسب ما لاحظتُ- هو التعلل بهذه الحيرة لتجنب القراءة من الأساس! فكأن "ماذا أقرأ" صارت مرادفًا لـ"لن أقرأ". وهناك نوع آخر من المدمنين على هذا السؤال وهو صنف من البشر غريب، يتحرى ويستفسر من أهل الفن عن مواد القراءة، ثم يسارع ويشتري هذه الكتب، لكنه لا يقرأ منها حرفًا! فهو يجمع الكتب ويقول في نفسه: "سأبدأ القراءة حين أُتم مكتبتي"! وهذا كالذي يشتري من اللباس ما لا يلبس ومن الطعام ما لا يأكل، فنسأل الله أن يجعل لمكتبته من يرثها وينهل منها، أما صاحبنا فلعل له أجر هذا الإرث، أما العلم فقد فاته!

مرة أخرى: "ماذا أقرأ؟

ابدأ بما في بيتك واقرأه! اجعل هذه بدايتك وكن كالجاحظ تقرأ كل ما تقع عليه يدك، ولكن لا تنسَ أن تقرأ بعين الناقد لا بعين التلميذ. وليكن عقلك التحليلي حاضرًا خلال القراءة يزن الكلام ويميز طيبه من خبيثه وسليمه من سقيمه. وليكن جهدك في الكتب إذا أنهيتَها قراءةً أن تخرج بتلخيص لمضمونها ونقدٍ لها ولو كان يسيرًا. وكل كتاب تفلَّتَ منك ولم تستطع حصره في أفكار أساسية فقد غَلَبَك!!

وختامًا، فأحيلك إلى كتاب للشيخ أحمد سالم "السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية" وفيه توجيهات مفصلة عن مسالك للطلب جيدة، ولكتاب الشيخ علي العمران "المشوق إلى القراءة وطلب العلم".

يا أصنام الأوهام تكسري

محمد براء ياسين



الكذب أمر تنفر منه الفطر والعقول السليمة، وتكره أصحابه، وعندما يتبين للمرء أن أحدًا كذب عليه وخادعه فإن نتيجة ذلك تكون شديدة جدًّا، وقد تؤدي به إلى نزوع إلى نقيض ما كان عليه دون تأمل في صحة هذا النقيض، ومن شواهد هذا في التاريخ الفكري الأوروبي أن (فولتير) جعل خداع الكنيسة للشعوب الغربية سببًا في نزوع تلك الشعوب إلى الإلحاد؛ إذ يقول في رسالته في التسامح: "لأن الخداع كان الوسيلة الوحيدة لكبحهم نراهم يرفضون حتى كابح الحقيقة وينزعون إلى الإلحاد".

والمرء قد لا يتبينُ وقوعَه في خداع السادة والكبراء في هذه الدنيا، ولا يتبين ذلك إلا يوم القيامة؛ فيدعو على سادته وكبرائه باللعنة والعذاب ويتبرأ منهم، ولا يفيده ذلك شيئًا؛ بل يقع في الندامة والعذاب، وقد ذكر الله تعالى في كتابه هذه المشاهد المتعلقة بالمخادَعين من الكفار في أكثر من موطن فقال: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: 166 – 167] وقال: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب: 67] وقال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: 33] والمرء ما دام في هذه الحياة الدنيا وقد زوده الله بالقوى العقلية التي تمكنه من النظر في الأدلة التي نصبها سبحانه وتعالى على الحق، ومن الكشف عن الزيف والكذب والخداع؛ فإنه في فسحة لأن يصحح أفكاره وينقدها بنفسه، قبل أن يتبين له أنه وقع في خداع الكبراء والسادة فينزع إلى التطرف المضاد، أو أن لا يتبين له ذلك إلا يوم القيامة، فيقع في الحسرة والندامة.

لعل من أهم أسباب قبول المرء لكثير من الأوهام دون أن يمحصها أنه لا يعيش في هذه الدنيا وحيدًا معزولًا، وإنما في مجتمعات تربطه بها مصالح مشتركة؛ فإذا كان النظر في تصحيح تلك الأوهام سببًا في انفكاك تلك المصالح وربما إلى المعادة والهجر من أصحابها =شقَّ على النفس أن تسلك سبيل النظر والتصحيح لتلك الأوهام فتُعرض عن ذلك إيثارًا للسلامة.

أما أصحاب الهمة العالية الذين يعلمون أن سعادة النفوس إنما تكون بالتصديق بالأخبار الشريفة الصحيحة المطابقة للواقع، وأن مرادات المرء وحركاته وأفعاله إنما تنبني على معلوماته، وبحسب صدقها وشرفها يصح مراده وفعله وحركته؛ فإن مصلحة معرفة الأخبار الشريفة الصادقة تكون مقدمة على جميع ما سواها من المصالح، ولذا فإنه يملك الشجاعة التي تحمله على نقد أفكاره وتصحيحها وإن فوَّت ما فوَّت من مصالح الدنيا.

ولنا في سلمان الفارسي رضي الله عنه أسوة حسنة؛ إذ إنه كان في بلاده عند قومه ووالده فتى محظوظًا يحبه والده حبًا جمًّا، فلما رأى نقص إله قومه المجوس الذي هو النار، وكمال إله النصارى بإزائه اشتاقت نفسه لمعرفة الإله الحق والدين الحق ولم يبالِ بترغيب والده ولا ترهيبه، فهجر بلده طلبًا للحق متنقلًا بين البلاد حتى قدم مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهداه الله إلى الإسلام.

إن النفس البشرية لا تطمئن إلا بالأخبار الصحيحة الصادقة اليقينية، واليقين في اللغة مأخوذ من الاستقرار، يقال: يقن الماء في الحوض إذا استقر فيه، وهذا الاستقرار يقدمه أصحاب الهمم العالية على كل استقرار في مصالح الدنيا. ومن أسباب امتناع المرء عن تصحيح أوهامه أن لا يكون قد بنى أفكاره بنفسه، وإنما أحال ذلك على غير معصوم وثوقًا به واطمئنانًا له؛ فهذا ليس بيده تغييرها ولا تصحيحها لأنه جعل بناءها بيد غيره، فلا يملك في مواطن الدفاع عنها إذا ما وجهت بالنقد إلا التعصب لقائلها، شأنه كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "كنا نعدُّ الإمعة في الجاهلية الذي يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره، وهو فيكم اليوم الـمُحقِب دينه الرجال". [أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله] قال الزمخشري في "الفائق": "المحقب: المردف من الحقيبة وهي كل ما يجعله الراكب خلف رحله. ومعناه المقلد الذي جعل دينه تابعًا لدين غيره بلا روية ولا تحصيل برهان".

وهذا الصنف هو أبعد الأصناف عن تصحيح أوهامه في الدنيا ، لأن صاحبه لا يدرك حقيقة مصابه، كما قال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

أم كيف يشعر تائه بمصابه ** والقلب قد جعلت له قفلان
قفل من الجهل المركب فوقه ** قفل التعصب كيف ينفتحان؟
ومفاتح الأقفال في يد من له التـ ** صريف سبحان العظيم الشان
فاسأله فتح القفل مجتهدًا على الـ ** أسنان إن الفتح بالأسنان

ومن أسباب امتناع المرء عن تصحيح أوهامه -سيما في الأمور الدينية- خوفه من الوقوع في الشك والريبة في الدين، وهذا الأمر يحتاج إلى إدراك للفرق بين الشك وبين طلب الدليل؛ فليس كل من طلب الدليل شاكًّا في المدلول، وإنما فائدة طلب الدليل زيادة الإيمان واليقين؛ كما طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحي الموتى حتى يطمئن قلبه.

ومن فائدة طلب الدليل أيضًا: التمييز بين مراتب المعارف؛ فإن النفس التي تطلب الدليل على أصول المسائل الدينية إذا جاءت إلى المسائل الدينية الاجتهادية فإنها تدرك التفاوت بين مراتبها في القوة، بخلاف من لم يطلب الأصول بالدليل، ولذا فإن من أسباب التعصب الفقهي في المسائل الاجتهادية عدم إدراك المتعصب لمراتب المعارف، وبهذا التمييز بين مراتب المعارف يتمكن الإنسان من إدراك التفاوت بين العقائد الدينية الحقة التي يعتقدها والأوهام التي تسربت إلى نفسه.

أما الشك فليس شيئًا محمودًا ولا مطلوبًا لذاته، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومن المعلوم أن الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال، وإنما يحب الدين والعلم واليقين، وقد ذم الحيرة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: 71] ثم قال: "والشك والحيرة ليست محمودة في نفسها باتفاق المسلمين".

وقد كان للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى تجربة في الشك حكاها في كتابه "المنقذ من الضلال"، وذكر أنه شرع في تشكيك نفسه في كل شيء حتى شك في المحسوسات والضروريات، وعاش في حالة من السفسطة مدة شهرين إلى أن شفاه الله تعالى من ذلك المرض.

وقد ذكر ابن تيمية تجربة الغزالي هذه في شرح العقيدة الأصبهانية وعلّق عليها بقوله (ص636): "ومن سلك الطرق الشرعية النبوية لم يحتج في إثباتها إلى أن يشك في إيمانه الذي كان عليه قبل البلوغ ثم يحدث نظرًا يعلم به وجود الصانع، ولم يحتج إلى أن يبقى شاكًّا مرتابًا في كل شيء، وإنما كان مثل هذا يعرض للجهم بن صفوان وأمثاله فإنهم ذكروا أنه بقي أربعين يومًا لا يصلي حتى يثبت أن له ربًّا يعبده؛ فهذه الحالة كثيرًا ما تعرض للجهمية وأهل الكلام الذين ذمهم السلف والأئمة، وأما المؤمن المحض فيعرض له الوسواس فتعرض له الشكوك والشبهات وهو يدفعها عن قلبه؛ فإن هذا لابد منه كما ثبت في الصحيح أن الصحابة قالوا: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: "أفقد وجدتموه"؟ قالوا: نعم. قال: "ذلك صريح الإيمان".

فالمقصود هو التفريق بين طلب الدليل وبين الشك وأنهما ليسا بمتلازمين.



ومن أسباب عدم اكتراث المرء بتصحيح أوهامه في القضايا الدينية: ضغط الفلسفة الغربية الإلحادية التي تقلل من شأن المعارف الدينية، ولا تلتفت إلى إلا العالم المادي الدنيوي وأسئلته ومتطلباته واحتياجاته، كما قال (أوجست كونت) في كتابه "العقيدة الوضعية": "تحل الإنسانية نهائيًّا مكان الله دون أن تنسى خدماته الوقتية". ولقد تجاوب معه (رينان) عندما ختم كتابه "مستقبل العلم" بقوله لله: "الوداع! مع أنك خدعتني إلا أنني ما زلت أحبك"! [من حاشية كتاب الإنسان القانوني، لألان سوبيو، (ص314)].

إن التأثر بالفلسفة الغربية يجعل المرء منشغلًا بشؤون المادة وقوانينها وأسئلتها غير مكترث بما يحويه قلبه من أوهام دينية؛ لأن الوهم الديني والحقيقة الدينية كلاهما غير مؤثرين في حياته، فلا فائدة من إضاعة الوقت والجهد للتمييز بينهما، وإذا وصل المرء للتأثر بمقولة نسبية الحقيقة فإنها تُكسِبه -زيادةً على ذلك- قناعة باستحالة التمييز بينهما.

وبعد:

فهذه الأسباب هي الجنود التي تحرس أصنام الأوهام، فإذا انتصرت عليها فلتتذكر حال النبي صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة فاتحًا وجعل يطعن الأصنام التي حول الكعبة بعود في يده وهو يقول: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا". فإزالة أصنام الأوهام لا تحتاج أكثر من طعنة العود تلك لتهوي كما هوت تلك الأصنام.



الحمد لله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد، والصلاة والسلام على نبينا الأمجد، صفوة وخير الخلق محمد، وبعدُ:

"فأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"

هذه هي تهمة المسلمين الوحيدة في ميانمار! وهي كافية جدًّا كسبب وحيد للعنف الممنهج ضدهم بواسطة العسكر والبوذيين قاتلهم الله ومكّن المسلمين من رقابهم!

تقدمة

ميانمار -أو بورما سابقًا- إحدى دول جنوب شرق آسيا، تقع على امتداد خليج البنغال، تحدها من الشمال والشمال الشرقي الصين، ومن الجنوب والجنوب الشرقي لاوس وتايلاند، ومن الغرب بحر اندامان وخليج البنغال، ومن الشمال الغربي بنجلاديش والهند. وعاصمتها رانجون، وتُعد البوذية هي الديانة الرسمية، واللغة الرسمية هي البورمية، وتقدر مساحة ميانمار بـ678,500 ألف كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانها 50 مليون نسمة من أكثر من 140 عرقية مختلفة، أكبرهم عددًا هم البورمان وهم الطائفة الحاكمة، يليهم المسلمون المعروفون بالروهينجا بنسبة ٪20.

أي أن عدد المسلمين 10 ملايين تقريبًا، نصفهم يتمركز في إقليم أراكان (أو راخين حاليًا) صاحب الأغلبية المسلمة بنسبة تفوق ٪80، تم تهجير وقتل أغلبهم، تقدر مساحة أراكان بـ50,000 كيلو متر مربع، ويقع في الجنوب الغربي لميانمار على ساحل خليج البنغال والشريط الحدودي مع بنجلاديش، وعاصمته أكياب، ويفصله عن ميانمار/بورما سلسلة جبال (أراكان يوما) الممتدة من جبال الهملايا، ولهجة المسلمين في أراكان تسمى الروهنجيان.

أراكان المسلمة والاحتلال:

وصلت دعوة الإسلام أراكان في القرن الأول الهجري والسابع الميلادي مع التجار المسلمين، ثم صارت مع الوقت ولاية إسلامية على يد الملك المسلم سليمان شاه، وحكمها 48 ملكًا مسلمًا على التوالي ما بين عامي 1430م - 1784م، وكان لهم عملات نقدية تتضمن شعارات إسلامية مثل كلمة التوحيد، ومما يدلُّ على قِدم وجود المسلمين في هذه الدولة بعض الآثار التاريخية كمسجد (بدر مقام) في أكياب عاصمة أراكان، ومسجد الديوان موسى الذي بُني بالقرن الثالث عشر الميلادي، ومسجد ولي خان الذي بني في القرن الخامس عشر الميلادي، ومسجد سندي خان الذي بني منذ 600 عام تقريبًا.

في عام 1784م احتل أراكان الملك البوذي البورمي (بوداباي)، وضم الإقليم إلى بورما، ودمّر كثيرًا من المساجد والمدارس، وقتل العلماء والدعاة، واستمر البوذيون البورميون في اضطهاد المسلمين ونهب خيراتهم وتشجيع البوذيين الماغ ذوي الأصول الهندية على ذلك.

وفي عام 1824م احتلت بريطانيا الصليبية بورما، وضمتها إلى حكومة الهند البريطانية، وفي عام 1937م قامت بريطانيا بضم أراكان إلى بورما وجعلهما مستعمرة مستقلة عن حكومة الهند البريطانية وعُرفت بحكومة بورما البريطانية.



في عام 1942م تعرض المسلمون لمذبحة كبرى من قِبَل البوذيين الماغ بعد حصولهم على الأسلحة والإمداد من قِبَل إخوانهم البوذيين البورمان والإنجليز، والتي راح ضحيتها أكثر من مائة ألف مسلم أغلبهم من النساء والشيوخ والأطفال، وشُرد مئات الآلاف، ومن شدة قسوتها وفظاعتها لا يزال الناس -وخاصة كبار السن- يذكرون مآسيها حتى الآن، ويؤرخون بها، ورجحت بذلك كفة البوذيين الماغ، وكان مقدمة لما سيحدث بعد ذلك.

في عام 1947م عُقد مؤتمر عام في مدينة بنغ لونغ للتحضير لاستقلال صوري لبورما عن إنجلترا، ودُعيت إليه جميع الفئات والعرقيات إلا الروهينجا لإبعادهم عن سير الأحداث وتقرير مصيرهم في أراكان، وفي عام 1948م (نفس عام قيام الكيان الصهيوني في فلسطين) منحت بريطانيا الاستقلال لبورما والحكم للبوذيين بعد أن أثبتوا لها كفاءتهم في إبادة المسلمين!

وفي عام 1962م استولى العسكر على الحكم في بورما بعد انقلاب عسكري بواسطة الجنرال (نيوين) المتعصب، والذي بدوره أثبت كفاءته أيضًا بتعريض المسلمين لكل أنواع الظلم؛ فدُمّرت الآثار الإسلامية من مساجد ومدارس تاريخية، وما بقي يمنع منعًا باتًّا من الترميم فضلًا عن إعادة البناء أو بناء أي شيء جديد لـه علاقة بالإسلام؛ من مدارس ومكتبات ودور للأيتام وغيرها، والمدارس الإسلامية تُمنع من الاعتراف الحكومي والمصادقة لشهاداتها.

المجازر الجماعية والتهجير:

ومنذ ذلك الحين يعاني المسلمون من التهجير الجماعي من قراهم وأراضيهم، وتوطين البوذيين مكانهم دون أي تعويض، ومن يرفض فمصيره الموت في المعتقلات بعد التعذيب الرهيب.

عقب الانقلاب العسكري البوذي طُرد أكثر من 300,000 مسلم إلى بنجلاديش، وفي عام 1978م طُرد أكثر من نصف مليون مسلم، مات خلال عمليات طردهم قرابة 40,000 من الشيوخ والنساء والأطفال حسب إحصائية وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، وما خفي كان أعظم.

وفي عام 1988م تم طرد أكثر من 150,000 مسلم، بسبب بناء القرى النموذجية للبوذيين في محاولة للتغيير الديموجرافي، وبعدها بثلاث سنوات تم طرد قرابة نصف مليون مسلم، وذلك عقب إلغاء نتائج الانتخابات التي فازت فيها المعارضة بأغلبية ساحقة.

وفي منتصف يونيو 2012م وفي مدينة رانجون العاصمة قُتل عشرة علماء مسلمين وهم عائدون من رحلة العمرة، على يد مجموعات بوذية، قامت بضربهم حتى الموت.

وفي نفس الشهر وإلى نهاية عام 2012 قُتل نحو 200 مسلمًا بينما هجر الألوف من مساكنهم، وقالت الأمم المتحدة إن أكثر من 13 ألف شخص من الروهينجا فروا بحرًا عام 2012 من أعمال العنف الطائفية.

وكانت منظمة (هيومان رايتس ووتش) قد أصدرت تقريرًا في 22 أبريل 2013م تتهم فيه قوات الأمن في بورما بالضلوع في ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، والتطهير العرقي، وقالت إن السلطات في ولاية راخين (أراكان) ساعدت في التطهير العرقي لمسلمي الروهينجا العام الماضي، في جرائم ضد الإنسانية أثارت أعمال عنف ضد المسلمين في مناطق أخرى من ميانمار، واتهمت المنظمة الحكومة البورمية والسلطات المحلية بالضلوع في التهجير القسري لأكثر من 125 ألف شخص من الروهينجا وغير ذلك من الطوائف المسلمة، وقالت: شجع مسؤولون بورميون وقيادات مجتمعية ورهبان بوذيون أبناء طائفة الماغ بدعم من أجهزة الأمن على شن هجمات منسقة ضد الأحياء والقرى المسلمة في أكتوبر 2012م من أجل إرهاب السكان وتهجيرهم قسرًا، ولقد حُرم عشرات الآلاف من النازحين من المساعدات الإنسانية ولم يتمكنوا من العودة إلى ديارهم.

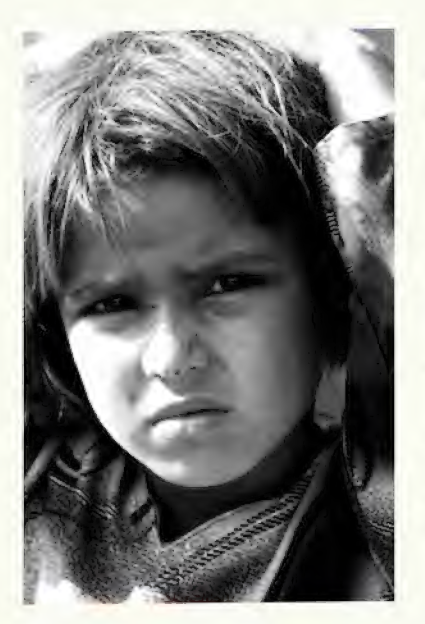


وأضافت هيومن رايتس ووتش أن قوات الأمن تواطأت في تجريد الروهينجا من أسلحة بدائية كانت تمتلكها، ووقفت في وضع المتفرج، بل شاركت خلال قتل بوذيين لرجال ونساء وأطفال في يونيو وأكتوبر عام 2012. واتهم التقرير قوات الأمن قائلًا إن القوات كثيرًا ما وقفت متفرجة دون تدخل أثناء هجمات، أو ساعدت بشكل مباشر المهاجمين في ارتكاب جرائم قتل وانتهاكات أخرى.

وقد نشرت BBC تسجيلًا مرئيًّا يُظهر عدم تدخل قوات الشرطة بينما يهاجم البوذيون المسلمين في بلدة ميكتيلا، وُيظهر التسجيل حشدًا يدمّر متجرًا للحلي الذهبية يمتلكه مسلمون، ويظهر أيضًا إضرام النار في المنازل، كما يُظهر رجلًا مسلمًا وقد اشتعلت النيران في جسمه. وقد جرى تصوير التسجيل في مارس 2013م عندما قُتل 43 شخصًا على الأقل في ميكتيلا كما تقول البي بي سي.

ويقوم الجنود الميانماريون وهيئات التنفيذ القضائي وسفاحو (الماغ) البوذيون بتطويق القرى المسلمة، ويقومون بإذلال كبار السن وضرب الشباب المسلم ودخول المنازل وسلب الممتلكات. ومن آونة لأخرى يُخطف مسلمون ويُعلّقون على جذوع الأشجار بالمسامير؛ حيث تُقطع أنوفهم ويُفعل بهم الأفاعيل.

الإذلال الاجتماعي والاقتصادي:



وتقوم الحكومة العسكرية بإجبار المسلمين على تقديم الأرز والدواجن والماعز وحطب النار ومواد البناء بالمجّان طِوال العام إلى الجنود وهيئات التنفيذ القانونية.

وقد تم إلغاء إثباتات المسلمين الرسمية القديمة وإحلال بطاقات تفيد أنهم ليسوا مواطنين، وتم إجبارهم على العمل القسري لدى الجيش سخرة وبلا مقابل، وحُرِم أبناء المسلمين من مواصلة التعلم في الكليات والجامعات، ومن يذهب للخارج يُطوى قيده من سجلات القرية، ومن ثم يعتقل عند عودته، ومُنعوا من الوظائف الحكومية إلا عمداء القرى وبعض الوظائف التي يحتاجها العسكر فإنهم يعيِّنون فيها المسلمين بدون رواتب كما سبق.

وتم حرمانهم من السفر إلى الخارج حتى لأداء فريضة الحج إلا إلى بنجلاديش ولمدة يسيرة، ويعتبر السفر إلى عاصمة الدولة رانجون أو أية مدينة أخرى جريمة يعاقَب عليها؛ بل يمنع التنقل من قرية إلى أخرى إلا بعد الحصول على تصريح، ولا يُسمح للمسلمين باستضافة أحد في بيوتهم ولو كانوا أقارب إلا بإذن، وأما المبيت فيعتبر جريمة، وفُرضت على المسلمين الضرائب الباهظة في كل شيء، والغرامات المالية، ومنع بيع المحاصيل إلا للعسكر بسعر زهيد.

وفي الآونة الأخيرة تُكثّف برامج تحديد النسل فيما بين المسلمين، حيث أصدرت قرارات تنصّ على أن المرأة المسلمة لا يُمكن زواجها إلا بعد أن تبلغ 25 سنة من عمرها، بينما لا يُسمح للرجل بالزواج إلا بعد مرور 30 سنة من عمره، ولا يُمكن الزواج إلا بعد الحصول على التصريح المكتوب من إدارة قوات الأمن "ناساكا"، والتي لا تسمح بالزواج إلا بعد تقديم الرشوة بمبلغ كبير يرضيها، والذي لا يقدر الجميع على تسديده، كما أنها لا تسمح في سنة كاملة لأكثر من عشرين أسرة بالزواج في القرية التي تتكون من ألفي أسرة على أقل تقدير، فإذا خالف أحد هذا القرار المرير فعقوبته تفكيك الزواج والاعتقال لمدّة تتراوح ما بين ستة أشهر إلى 10 سنوات، وغرامة (50,000) "كيات" بورمي.

ولا يُسمح للعائلة المسلمة إلا بمولودين فقط، ومن يولد له أكثر من ولدين يوضع أولاده على القائمة السوداء، وهي تعني أنهم غير معترف بهم وليس لهم حقوق ويعرّض العائلة للعقوبة؛ مما يضطر العائلة في أحيان كثيرة إلى إخفاء أولادهم عند التعداد السكاني.

وبحسب قانون الجنسية الذي صدر عام 1982م يُقسّم المواطنون كما يلي:

أ- مواطنون من الدرجة الأولى وهم: (الكارينون والشائيون والباهييون والصينيون والكامينيون).

ب- مواطنون من الدرجة الثانية وهم: خليط من أجناس الدرجة الأولى.

ج- مواطنون من الدرجة الثالثة وهم: المسلمون حيث صُنِّفوا على أنهم أجانب دخلوا بورما لاجئين أثناء الاحتلال البريطاني حسب مزاعم الحكومة.

لاجئون وأيضًا معذبون:

يوجد معظم الاجئين في بنجلاديش وباكستان، وبعضهم لجأ إلى إندونيسيا، و المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج العربي، إضافة إلى مجموعات قليلة في دول جنوب شرق آسيا وأوروبا وأمريكا وأستراليا.

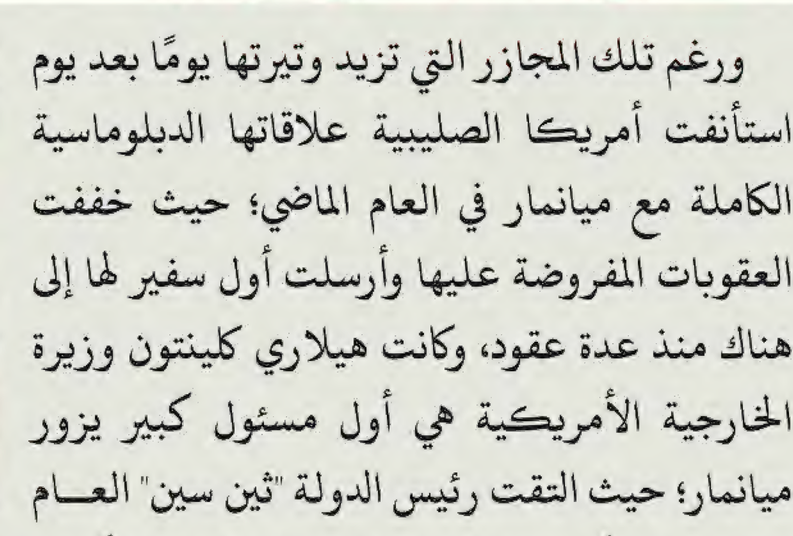
وقد حذرت منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان في تقرير لها من أن 200,000 روهنجي في بنجلاديش يعانون من حالة متدهورة من الناحية الإنسانية، وأن مسلمي روهينجا سيتعرضون لخطر المجاعة إذا لم يتم زيادة السلع الغذائية، وتقول المنظمة: إن 18 ٪ من الأطفال يعانون بالفعل من سوء تغذية حادّ.

ويقوم حرس الحدود حاليًا ببناء سياج حدودي، باستخدام عمال السخرة من شعب روهينجا، يبلغ طوله أكثر من 200 كيلو متر على الحدود مع بنجلاديش، وبالتالي فإنهم يقطعون على المسلمين أي طريق للهروب.

ورغم كل ذلك تقوم المؤسسات التنصيرية باستغلال وضع اللاجئين المسلمين خارج بورما، وكذا داخل أراكان من خلال الهيئة العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، التي يعمل التنصير تحت ستارها، وتقوم تلك المؤسسات بتقديم الدعم المادي وحفر الآبار وغيرها من المشروعات لاستغلال أوضاع المسلمين.

الصليبيون الجدد يكافئون البوذيين!





ورغم تلك المجازر التي تزيد وتيرتها يومًا بعد يوم استأنفت أمريكا الصليبية علاقاتها الدبلوماسية الكاملة مع ميانمار في العام الماضي؛ حيث خففت العقوبات المفروضة عليها وأرسلت أول سفير لها إلى هناك منذ عدة عقود، وكانت هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية الأمريكية هي أول مسئول كبير يزور ميانمار؛ حيث التقت رئيس الدولة "ثين سين" العام الماضي، وقد تُوجت تلك العلاقات الودية بقيام أوباما بزيارة خاصة إلى ميانمار مطلع العام الميلادي الحالي، وكانت العلاقات بينهما قد انقطعت عام 1988م احتجاجًا على قتل محتجين مطالبين بالديمقراطية.

وجاء في خبر نشرته وكالة رويترز (**reuters**) ما نصّه: "**توجه الولايات الأمريكية الدعوة إلى ميانمار للمشاركة في أكبر تدريبات عسكرية متعددة الجنسيات في العالم، في لفتة رمزية قوية صوب جيش له سجل قاتم في مجال حقوق الإنسان تمثل علامة فارقة في التقارب بين ميانمار والغرب**". وذلك نهاية العام الماضي.

ومنذ أيام أعلنت أمريكا أنه سيتم إعفاء منتجات ميانمار من الرسوم الجمركية فى الأسواق الأمريكية بنهاية هذا العام، حيث تسعى الولايات المتحدة إلى تعزيز علاقاتها التجارية والعسكرية مع ميانمار.

ومنذ عدة أيام وعلى المستوى الأوروبي الصليبي جاء في تقرير لـبي بي سي (**BBC**) ما يلي: "قرر الاتحاد الأوروبي رفع العقوبات التجارية والاقتصادية والشخصية التي يفرضها على بورما، وذلك لمكافئتها على برنامج الإصلاح السياسي الذي تنتهجه الحكومة البورمية...

وقال وزير الخارجية البريطاني وليم هيغ إن التقدم الذي حققته بورما في مجال إطلاق الحريات السياسية من الجدية والأهمية بحيث يبرر تثبيت الرفع المؤقت للعقوبات".

موقف الدول الإسلامية

أما موقف الدول "الإسلامية" فهي -كالعادة- في أفضل حالاتها تشجب وتستنكر وتندد، ولم تقم دولة منها بدور يُذكر إلا من باب العرض الإعلامي وحفظ ماء الوجه لا أكثر؛ لذلك لن أطالب تلك الدول بشيء؛ فمسئولوها لا يقرءون، وإن قرأوا لا يعملون؛ أصحاب قلوب غلف وعلى أبصارهم غشاوة.

وإنما أوجه ندائي إلى عامة المسلمين وبالذات الشباب المسلم الغيور على دينه وأمته!

1- يجب على كل قادر نصرة المسلمين في ميانمار بالنفس والسلاح والمال وكل شيء يستطيعه، والواجب على المسلمين القريبين آكد من غيرهم، وإن كان واجبًا أيضًا على من سواهم ممن بَعُد، ولن يزيد الجهاد المسلمين هناك بأكثر ما هم فيه من اضطهاد؛ بل سيجعل لهم شوكة ومنعة وهيبة.

2- دونكم سفارات ميانمار على بعد خطوات منكم؛ فلا تنقطعوا عن الاحتجاجات أمامها بصورة دورية أسبوعية أو نصف شهرية أو غير ذلك؛ مطالبين بطرد السفراء البوذيين وقطع العلاقات مع دولة ميانمار، وبالكف عن المجازر التي ترتكب بحق المسلمين، وبالانصياع لمطالبهم العادلة.

3- قوموا بحملات توعية تنشرون فيها صور إخوانكم المسلمين بين الناس ليعلموا حجم المأساة واجتماع أمم الكفر على المسلمين؛ استجلابًا لعقيدة الولاء والبراء في النفوس، واستنهاضًا للهمم لنصرة المسلمين.

4- القيام على رعاية اللاجئين في كل الدول الموجودين فيها، فالمسلم أخو المسلم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا.

5- الدعاء في مواطن الإجابة الزمانية والمكانية بأن يتقبل الله شهداءهم ويداوي جرحاهم وينصرهم على عدوهم.

هذه نقاط على عجالة في تلك المقالة المقتضبة، وعلى كل مسلم أن يُفكر في وسائل غيرها لنصرة إخوانه، وحسبنا الله ونعم الوكيل.



شعارات مارسيليزية

يسرا جلال

"إلى السلاح، أيها المواطنون!
شكّلوا صفوفكم!
فلنزحف! ... فلنزحف!
وليتشبّع تراب أرضنا من دمائهم القذرة!
ماذا يريد هذا الحشد من العبيد، من الخونة، ومن الملوك المتآمرين؟"

التهب حماس (شارل)، واحمَّرت عيناه الزرقاوتان، وارتفع صوته مدويًا بالمارسييّز مع زملائه الستة وثلاثين ألفًا، يتردد صداه عاليًا مع دقات الطبول، تحمله أمواج البحر الأبيض كما تحمل الأربعمائة سفينة من الشمال نحو الجنوب.

وفي صالة الطعام كان (شارل) رغم بنيته الضعيفة أعلى زملائه صوتًا: "لي كل الشرف والفخر أن أكون جنديًّا من جنود الإمبراطور، والويل كل الويل لمن يحمل سلاحًا ضد جيش الإمبراطور نابليون". ثم ضرب بيده المنضدة مُحْدثًا فرقعةً مدوية: "غدًا تملك فرنسا العالم كما ملكه الإسكندر الأكبر.. ألم تفهموا كلام الإمبراطور؟ غدًا يبسط الإمبراطور سيطرته على مصر ويستورد عمالها وفنانيها من العرب الرعاع لتتحول باريس على أيديهم إلى تحفة فنية، سنعلم المسلمين الرعاع معنى الحرية". ووقف على مقعده الخشبي القصير يضرب الهوا بيمينه: "حـرية - مسـاواة - إخـاء".

توجه (شارل) بعد العشاء إلى فراشه وراح في سبات عميق، نام (شارل) بينما كان قائده (نابليون) منهمكًا في دراسة الإسلام والقرآن؛ فقد أخبره وزير خارجيته (تاليران) بضرورة مراعاة تقاليد أهل مصر واستمالة قلوبهم بإظهار احترام شعائرهم الدينية وعلمائهم.

لم يألُ (نابليون) جهدًا لإنجاز هدفه؛ حشد على ظهر أسطوله كل ما وصلت إليه يده من جنود ومدفعية وعلماء ومطبعة وكتب وعملاء ومترجمين ونساء متخفيات في زي الجنود.

وقبل أن يقترب الأسطول الفرنسي من سواحل الإسكندرية لاحت لهم جزيرة صغيرة لم تكن هدف حملتهم، لكن كنوزها تستدعي تأخر الأسطول قليلًا للاستيلاء عليها (سلميًا). الكنوز التي انهمك (شارل) وزملاؤه في تحرير الكشوف الرسمية بما (نهبته) حملتهم على الجزيرة.. ملايين الفرنكات، والآف البنادق، وفرقاطة، وأوانٍ فضية، وكنوز كنيسة القديس يوحنا وصناديقها المرصعة بالجواهر. كانت أصابعهم مشغولة بالعد والحساب بينما أصوات حناجرهم ترتفع بالمارسيِّيز..



وحده (شارل) سكت عن الغناء وانبرى مدافعًا: "عزيزي روبير! انتهى دورهم، كان لهم الفضل في بقاء القدس في أيدي الصليبيين؛ ولكن العالم يتطور والعالم الجديد لا مكان فيه لجماعة فرسان مالطة، انتهى الأمر، فرنسا انتصرت على إيطاليا وتصالحت مع بروسيا والنمسا، وصار أسطول البندقية جزءًا من الأسطول الفرنسي، هل نترك هذه الكنوز في أيدي الفرسان الجهلاء؟ لن يحسنوا استخدامها. قل لي ما الفائدة من الاحتفاظ بذراع القديس يوحنا في هذا الصندوق؟ ماذا ستجني المسيحية من ذلك؟ كن أكثر واقعية، كل تلك الكنوز ستساعد الإمبراطورية الأقوى في نشر معاني الحرية والمساواة والإخاء في العالم".

لم ينم شارل هذه الليلة، لم يغب عن عقله مشهد الفرسان وهم يحملون كنوز مالطة ويسلمونها لجنود الإمبراطور، لم تغب عن عينه صورة الطفل المالطيّ المتعلق بثوب أمه البدينة وهو ينتحب مغادرًا بيته بعد أن أمر الإمبراطور بمغادرة كل من هو دون الستين للجزيرة. تُرى إلى أين ذهب هؤلاء؟

حسنًا لا يهم لا يهم، كلنا فداء للإمبراطورية، لكن! الحرية.. المساواة.. الإخـ...
هل حطمتُ الباستيل لأملك الحرية وحدي؟ بينما الجميع يرسف في الأغلال والقيود؟ هل المارسيّيز غير صالح للغناء إلا على ظهور البوارج وفي شوارع فرنسا فقط؟



في صباح اليوم التالي وقف (شارل) منتبهًا ليسمع منشور نابليون: "أيها الجنود! إنكم موشِكون على فتح له أثار بعيدة المدى في حضارة العالم وتجارتها، وستطعنون إنجلترا طعنة تؤذيها لا محالة في أضعف مواطنها, انتظارًا لليوم الذي تسددون فيه لإنجلترا الطعنة القاتلة".

نعم قالها القائد العظيم يجب أن نسدد (طعنة) لإنجلترا، ولن تسدد هذه الطعنة إلا بالقضاء على بكوات المماليك الذين يخدمون مصالح إنجلترا وتجارتها، ويستبدون بأهل وادي النيل، نعم! سنعلّم أهل وادي النيل الحرية - المساواة - الإخاء،كم أنا متشوق لإنقاذ هؤلاء البائسين! خمسة أيام تفصل بيننا وبين مدينة الإسكندر الأكبر، لن نخذلك يا إسكندر.. نحن قادمون.

ها هي شواطئ الإسكندرية البيضاء تقترب، تُرى ما شكل هؤلاء العرب المسلمين الرعاع؟ ذكرت الأخبار أنه في اليومين السابقين رفض محمد كُريِّم حاكم المدينة محاولات الأدميرال (نلسن) لحماية المدينة من حملتنا، يا (نلسن) نحن أولى بمصر منك، نحن من سينشر الحرية والمسا...

لماذا رفض كُريم؟ أعلم أنه لا يملك جيشًا يدافع به عن المدينة، ما هذه السذاجة؟! لماذا لم يستفد من (نلسن)؟ هل تُصدق أنه قال لرسول (نلسن): "هذه بلاد السلطان, وليس للفرنسيس ولا غيرهم عليها سبيل, فاذهبوا عنا". بل لقد عرض عليهم شراء ما يحتاجونه من الماء والذخيرة، عجوز ناهز الستين كيف له أن يعي الصراع الدائر في العالم المتحضر الآن! حسنًا فعل، وفّر علينا القتال مع (نلسن)، لم يكن الإنجليز ليفوا بعهد الحماية الذي وعدوه به، لكن غدًا حين نصل إلى الإسكندرية سيعرف من هم جنود الإمبراطور وسيتعلم منا معنى الحرية - المساواة - الإخاء.

لم يشعر أهل الثغر في الصباح إلا والفرنسيس كالجراد المنتشر حول البلد، وكان على الثغر مواجهة فرقاطات وسفن أسطول نابليون بنصف برميل بارود وحامية تتكون من عشرين مملوكًا ومدفع رمضان! و المدد السلطاني سيتأخر؛ لذا كانت المقاومة الشعبية هي الرد الوحيد على الغازي الصليبي بصورته الجديدة، غازٍ صليبي علماني الوجه كما اعترف نابليون في مقارنته بين حملته وحملة لويس التاسع: "إن لويس التاسع أنفق ثمانية أشهر في الصلاة، و كان أجدى أن ينفقها في الزحف والقتال واحتلال البلاد".

رست القوات الفرنسية على شاطئ الثغر ليلًا، وأنزل نابليون جنوده وأصدر بيانًا طالب الشعب فيه بالهدوء، وأظهر إسلامه بل واحترامه للسلطان العثماني (أدام الله ملكه)، وأعلن أنه إنما جاء للقصاص من المماليك.

- لكن أين المماليك؟ لماذا لم يأتوا لنحاربهم كما ذكر الإمبراطور؟

سمع (شارل) وهو على ظهر سفينته الصراخ عاليًا آتيًا من المدينة، الجميع يصرخ؛ النساء والرجال والأطفال، وارتفع صوت الصراخ أكثر عندما أمر نابليون بإطلاق المدفعية التي واجهها العرب بالرصاص والأحجار.

واستمرت مقاومة السيد محمد كُريم في القلعة لساعات متأخرة من الليل، ورغم التفاوت الواضح بين القوتين إلا أن (شارل) علم أن الجنرال (مينو) أصيب وكذلك الجنرال (كليبر).

- عجبًا لماذا يقاوم الرعاع جحافل الحُريـــ... (شاارل) ليس هذا الوقت المناسب للتأمل! يبدو أن الصراخ هذه المرة في صفوفنا! ماذا أصاب القائد نابليون؟! هل يجيد الرعاع القنص؟ لماذا يحاولون قتلنا؟ نحن من سيحررهم من تسلط المماليك، لسنا أعداءهم ليقاتلونا، جئنا لمحاربة المماليك فقط، لكن أين المماليك؟ إن من يواجهنا هم السكان المحليون؛ خاصةً بعد استسلام كُريم ونفاذ ذخيرته!

- نعم مسيو! حالًا، في هذه البناية إذن؟ عُلم وينفذ.

المماليك في هذا المسجد يقاومون الحرية، هم من حاول قتل الإمبراطور، ما هذا؟ أين من المماليك من أطلق علينا الرصاص إذن؟

لا بأس سنقضي على الجميع كما أمر القائد؛لم يكن هناك من أثر للعسكر في المسجد بل كان الرجال والنساء والأطفال الذين قتلنا معظمهم بحد السناكي واستحيينا الباقين.

رعاع ويبدو أنهم سيبقون كذلك للأبد ولا جدوى من محاولة إنقاذهم من تسلط المماليك، يبدو أننا سنعاني حتى نعلمهم معنى الحُريـــ...

ابتعد! قلت ابتعد! أتظن أنك قاتلي بمغزلك النتن أيها الصياد المسلم؟ أتقتلني للدفاع عن المماليك يا جاهل؟! إنهم ليسوا من أهل البلد! سنمكن لكم في الحكم، انتظر حتى أعلمك الحُـ... لن يسبق مغزلك رصاصـــتي.. اسمع معي.. اسمع المارسيليزيه:

"الحريّة، الحريّة العزيزة، قاومي أيتها الحرية مع مدافعيك، تحت أعلامنا سنُكافأ بالنصر، عجلي أيتها الحرية بزئيرك، ليكون أعداؤكِ في أنفاسهم الأخيرة"

مسح (شارل) الدماء عن رقبته، ثم لفظ (شارل) أنفاسه الأخيرة..



المشكاة الأولى (١/٢)

" أصحاب العربية جِنُّ الإنس؛ يُبصرون ما لا يُبصر غيرهم!"
أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه

وجدان العلي

ها أنت تمسك قلمك لترسم صراطك الأدبي، ولكن هنالك حيرةً طاغيةً في التعرف على معالم هذا الصراط والاهتداء إلى أسس السير فيه، وهذا هو الذي يصيب كثيرًا من طلبة العلم بالعثرة في طلبه، وفهم العلوم الشرعية، والنفاذ إلى أسرارها العميقة، التي بُنيَت صروحها على هذا اللسان الشريف.

وهو اللسان الذي لا بد من إتقانه لفهم الوحي ونصوص الشرع وكلام الأئمة، ومَن توفَّر عليه بالدرس والتأمل والنظر = كان من أوفر الناس بصرًا في فهم النصوص واستنباط الأدلة.

وهذا السَّمْت أشار إليه أهل العلم واستفاضوا في الكلام عنه؛ فهذا أبو عبد الله الشافعي رضي الله عنه يقول: "ما جَهِلَ الناس ولا اختلفوا إلا لتَرْكِهم لسانَ العرب، وميلِهم إلى لسان أرسْطاطَالِيس".

وهذا أبو بسطام شعبة بن الحجاج الإمام النقاد الجليل رضي الله عنه: "مَثَلُ الذي يتعلم الحديث، ولا يتعلم النحو، مثل البُرْنُسِ لا رأس له"!

وهذا أبو العباس ابن تيمية رضي الله عنه يقول: "وأيضًا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرضٌ واجبٌ؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرضٌ، ولا يُفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.
ثم منها ما هو واجبٌ على الأعيان، ومنها ما هو واجبٌ على الكفاية، وهذا معنى ما رواه أبو بكر ابن أبي شيبة: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "أما بعد: فتفقَّهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن؛ فإنه عربي".. وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية وفقه الشريعة =يجمع ما يُحتاج إليه؛ لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو فقه أعماله".

وهذا أبو إسحاق الشاطبي رضي الله عنه يقول عند حديثه عن عدة المجتهد: "وأما الثاني من المطالب: وهو فَرْضُ علمٍ تتوقف صحةُ الاجتهاد عليه، فإن كان ثَمَّ علمٌ لا يحصل الاجتهاد في الشريعة إلا بالاجتهاد فيه، فهو لا بد مضطرٌ إليه؛ لأنه إذا فُرِض كذلك لم يمكن في العادة الوصولُ إلى درجة الاجتهاد دونه، فلا بد من تحصيله على تمامه، وهو ظاهرٌ. إلا أن هذا العلم مبهمٌ في الجملة، فيُسأل عن تعيينه. والأقرب في العلوم إلى أن يكون هكذا =علمُ اللغة العربية"..

ثم قال: "وبيانُ تعيُّنِ هذا العلم: ما تقدَّم في كتاب المقاصد من أن الشريعة عربيةٌ، وإذا كانت عربيةً؛ فلا يفهمها حقَّ الفهم إلا من فهم اللغة العربية حقَّ الفهم؛ لأنهما سِيَّانِ في النمط، ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مُبتدِئًا في فهم العربية =فهو مبتدئٌ في فهم الشريعة، أو متوسطًا؛ فهو متوسطٌ في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجةَ النهاية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة؛ فكان فهمُه فيها حُجَّةً كما كان فهمُ الصحابة وغيرِهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حُجَّةً، فمن لم يبلغ شأْوَهم؛ فقد نقَصَه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل مَن قَصر فهمه لم يعد حجةً، ولا كان قوله فيها مقبولًا".

وهذا الذي نقلتُه لك، واختصرت في إيراده =مُبينٌ عن جلالة هذا الأمر، ورعاية السلف رضي الله عنهم له، فالعربية تكسو صاحبها بصيرةً في النظر إلى النصوص ودلالاتها، وفي لفتة بارعة من شيخ الإسلام رحمه الله، يشير فيها إلى هذه "الكسوة النفسية والعقلية" يقول: "واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخلق، والدين تأثيرًا قويًّا بيِّنًا، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق".

حسنٌ، ما الطريق الموصلة إلى تلك "المشكاة الأولى"؛ لأنهل من ضوئها العتيق حتى أبصر معالم الدرب؟

وأنا أجيبك إلى ما سألتني عنه، مُفَصِّلًا أسبابَ الضعفِ الذي سكن الأقلام والأفهام، وعطَّلها عن السيرِ في درب الطلب، أو سوّل لها السير فيه دون امتلاك أدواته التي على رأسها إتقان العربية.

فهذا الضعف الذي ترى ثمرةٌ مرةٌ لإقبال الشباب على العجلة التي تحصرهم في مطالعة "الضعف"، والقياس عليه، وأبعدهم عن "بادية الصفاء" عند آبائنا الأولين، وعلمائنا الذين سطروا علومهم بهذا اللسان الشريف =إلى "صحراء العُجْمة" التي أنبتتْ تلك الأقلامَ القاحلة؛ فصرنا إلى "تكاثر الغثاء" =فالكثير من كتب هذه الأيام لا يفيد، إلا إن أنشئوا عِلمًا للثرثرة: قلَّما تجد عقلًا .. وكالعنقاءِ أن تجد بيانًا وقلَمًا!

وهذا الشاب يأتي لينسج على هذا الضعف، فيُنشئُ بعقلٍ لم يشهد الأفذاذ، ولم يطالع آثارهم، ورأى الضعف فقاسَ عليه، وظنه الأصل فاتخذه دليلًا هاديًا، فكان الذي ترى وتسمع ضعفًا أو عجزًا عن الإبانة، ثم تطور العجز إلى استهانة بالعربية، وتحقيرٍ لها، ورميٍ لها بالضعف! والمسكنة كما تكون في المال تكون في العقول!

وسأنأى عن هذا القدح المر، وأسبابه وبواعثه؛ لأكتب عن سبل الاهتداء إلى "المشكاة الأولى"، والتي أعني بها التضلع من المعين الأول الذي لم يُشب، وهذا الأمر يحتاج منك إلى أمورٍ كثيرةٍ، فليس كل ما في الكتب صحيحًا، وليس كل ما يقع لك من الفهم فيها صوابًا، وهذا حديثنا الآتي إن شاء الله في مقالتي القادمة التي أرسم لك فيها قواعد السير ومنازل الطريق.



المضامين الإلحادية في السينما الأمريكية

أدهم حسين

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: 22]

I only set the stage. You pull your own strings ~(Al Pacino - Devil Advocate)

Let me give you a little inside information about God. God likes to watch. He's a prankster. Think about it. ~(Al Pacino - Devil Advocate)

- دعني أخبرك ببعض الأمور الخاصة عن الله، إنه مخادع شغوف بالمراقبة، "فكر" في أمره!

He gives man instincts. He gives you this extraordinary gift, and then what does He do?! I swear for His own amusement… Look but don't touch. Touch, but don't taste. Taste, don't swallow. Ahaha. And while you're jumpin' from one foot to the next, what is he doing? He's laughin' His sick… Worship that? NEVER! ~(Al Pacino - Devil Advocate)

- خلق فيك الغرائز. ثم أعطاك المنح والعطايا الفائقة، لماذا؟! ليستمتع!! ... يقول انظر ولا تقترب، اقترب ولا تفعل! هكذا. وبينما تكابد التكليف يجلس هو يشاهد ويضحك. أتعبد شيئًا كهذا؟! أبداً!!!

- قد ترى أنها دعاوى كاذبة مضللة؟! أخبرك في "الكتاب" أنها كذب؟! ولكنه "كتابه"!!

consider "the source" son! ~(Al Pacino - Devil Advocate)

- قيل إنه لا يكذب؟! ولكن هكذا يقول كل مخادع!

The last thing I would ever do to you… is lie to you. ~(Ed Harris - Truman show)

هكذا تحاول "خطوات" السينما الأمريكية إعادة صياغة علاقة الإنسان وتصوّراته، لا فيما يتعلق بإثبات "وجود" الإله فحسب، بل في طبيعة وجوده وحقيقته!! فإن الشيطان وإن أيس أن "يُعبَد" في الأرض، فقد عمد إلى "ألا يُعبَد غيره". فسعى في "الصد" عن سبيل الله تارة، وفي "التحريش" بين الإنسان وخالقه تارة أخرى.



وهكذا تستلهم السينما الأمريكية روح "الدراما المسرحية اليونانية القديمة" التي كانت تقوم على الصراع بين الإنسان والإله، وكانت مأساة الإنسان فيها -كما يقول توفيق الحكيم- في الصراع مع القدر. ومع التطوّرات الفكرية بدأت تظهر مدارس تحاول أن تعتمد الدراما كميدان تطبيقي تمارس من خلاله فلسفاتها وأفكارها، تمّ ذلك عبر المسرح والرواية والقصة القصيرة. حتى جاءت السينما لتوفّر أدوات لا تملكها الرواية ولا المسرحية، وتصبح ميدانًا تطبيقيًا مثاليًا للأفكار الإلحادية عبر الدراما، من خلال جدليات كعلاقة الإنسان بالإله، وإرادة الإنسان بالقدر وهكذا، مع تطويع تصورات العهد القديم بما يخدم المذهب الإلحادي عبر الدراما السينمائية المقدّمة.

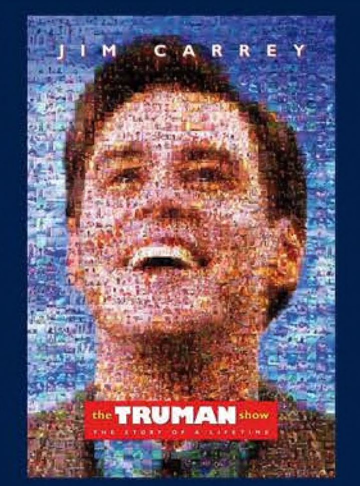
السينما عمومًا فن مركب شديد التعقيد، عابر للأجناس الدرامية التي سبقته، يعتريه ما يعتري الإنسان من الرغبات النفسية المستترة، وفلتات اللسان، وانفعالات وتجليات اللاشعور على شاكلة "أضغانهم"، و"لحن القول"، و"ما تخفي صدورهم"، و"تلك أمانيهم!". فتجد في الأعمال السينمائية "إيحاءات وتوجيهات متناقضة" مقصودة وغير مقصودة. تجد الطموح العسكري والسياسي مصحوبًا بالخوف من هيمنة منطق القوة، تجد الزهو بالتطور التكنولوجي مصحوبًا بالخوف من سيطرة الآلة، والأهم تجد الاحتياج الشديد "للإيمان والأخلاق" مع الخوف من "الله والدين"!

وكمدخل لفهم "المضامين الإلحادية" في السينما الأمريكية لابد من فهم "الخلفية الدينية" التي شكلت "العقل المسيحي" عمومًا و"البروتستانت" خصوصًا؛ فالصراع القائم بين الإنسان والإله، بين الإرادة الإنسانية والقدر، بين العلوم الإنسانية والدين، بين الحقيقة والوهم، ما هو إلا انعكاس "لنزعة نفسية" في المقام الأول، نزعة تطفو على سطح الأعمال الفنية عمومًا لتتحقق في عالم افتراضي يخضع بشكل كامل للإرادة الإنسانية، شأنها شأن "حديث النفس" الذي يراه النائم.

وهكذا أصبحت السينما الأمريكية نافذة لرصد تطور الإلحاد؛ فالأمر لم يعد خفيًّا؛ بل معلنًا لدرجة دعتْ بعض المواقع التي تنشر جديد الأفلام الأمريكية إلى أن تضع مؤشرات "للمحتوى الإلحادي" في الفيلم كما كانت تضع مؤشرات للمحتوى الجنسي أو مشاهد العنف في الفيلم؛ بل تجد مواقع التسوق الشهيرة تضع قائمة لأفضل عشرين فيلمًا صديقة أو داعمة للإلحاد (Atheist Friendly Movies/films that support atheism) و الأخطر أن تجد على رأس تلك القوائم فيلمًا موجهًا للصغار في الأساس (The Wizard of Oz - 1939) ونفس الفيلم يعاد إخراجه اليوم بتقنيات متطورة.

وإليك نماذج لأهم المضامين الإلحادية في الأفلام الأمريكية التي سبق عرضها وما زالت تعرض على الشاشات العربية حتى اليوم.

ثنائية "الإنسان والإله":



الفيلم الكوميدي (**Truman Show - 1998**) تدور أحداثه عن شخصية ترومان الذي يعيش داخل أضخم استديو على وجه الأرض -يظنه العالم الحقيقي- الاستديو مجهز بآلاف الكاميرات التي "تراقب" ترومان، وتراقبه بينما يدير صانع البرنامج/ **Creator** أحداث وتفاصيل حياة ترومان من غرفة التحكم الموجودة في السماء! لا لشيء إلا إمتاع الجماهير التي تتابع برنامج الواقع الأشهر "ترومان شو".

فتجد الفيلم يجسد ثنائية الإنسان والإله من خلال علاقة البطل ترومان بصانع البرنامج/Creator في إشارة شبه مباشرة لهذه الصلة حين يقول المخرج:

- I am the creator!... of a television show. ~(Ed Harris - Truman show)

الأخطر أن تجد الفيلم يستلهم نفس العلاقة بين الإنسان والإله الواردة في "سفر التكوين"، فتجد المخرج يتعمد "تخويف" ترومان بكافة الطرق من فكرة السفر/معرفة الخير والشر، حتى لا يكتشف ترومان في يوم من الأيام أنه يعيش داخل عالم افتراضي. حتى أن ترومان في صغره عندما يفصح عن أمله في استكشاف العالم تقول له معلمته: ما بقي شيء ليُستكشف - [There's nothing left to explore!] في إشارة واضحة لسد أبواب المعرفة وتجهيل متعمد للإنسان، نفس مضامين التخويف والتجهيل التي تجدها عند الحديث عن "شجرة المعرفة" في سفر التكوين: "لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت".

بل تجد إشارات واضحة لدور (الوسطاء/الرسل) الذين ينقلون رسائل المخرج لترومان، فكلما وجد الشك طريقًا لنفس ترومان تأتي التأكيدات من خلال "رُسل المخرج" باستحالة "الكذب" على ترومان

- The last thing I would ever do to you… is lie to you. ~(Ed Harris - Truman show)

وفي نهاية الفيلم حين يحاول ترومان اكتشاف الحقيقة، تخرج المدينة كلها للبحث عنه فيختبئ؛ كما في سفر التكوين: "فاختبأ آدم و امرأته من وجه الرب الإله"، وتتردد الأصوات من كل مكان تبحث عن ترومان "فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت"، بل ويأمر بإخراج الشمس! في غير موعدها للبحث عن ترومان. وحين يكتشف المخرج أن ترومان ركب البحر، هنا فقط تظهر نفسية الـ **Creator** الذي لا يمانع من إغراق ترومان بالرياح الشديدة في وسط البحر. فقط لأنه "كفر" بالبرنامج وأفسد اللعبة!

هكذا يُعرض الأمر: إن "اكتشفت الحقيقة!" موتًا تموت؛ كما في سفر التكوين: "لأنك يوم تأكل منها (أي: شجرة المعرفة) موتًا تموت". لكن لابد من التأكيد في نهاية الفيلم على انتصار "الطموح الإنساني"، في حوار يقر فيه "صانع/Creator" البرنامج بعجزه عن السيطرة إن كان للإنسان إرادة حرة وواضحة، هكذا لا يمكن لأحد إيقافه:

- If his was more than just a vague ambition, if he [Truman] was absolutely determined to discover the truth, there's no way we could prevent him. ~(Ed Harris - Truman show)



ثم يأتي "الحقن الإلحادي المباشر" على لسان المخرج حين يشير إلى "الحقائق!"، أو ما يراد لنا أن "نعتقد" أنه حقيقة!

We accept the reality of the world with which we are presented; it's as simple as that. ~(Ed Harris - Truman show)

مضامين إلحادية لا يمكن حصرها في هذا الفيلم الكوميدي على سبيل المثال، وهذا الفيلم غير مدرج على قوائم الأفلام الإلحادية ويعرض على الشاشات العربية!

أما لو انتقلنا لأفلام أكثر وضوحاً كفيلم (**The Devil's Advocate - 1997**) فتجد نفس المعنى بشكل صارخ وفج.

هكذا ترد الشبهات مفصلة، تطلق بلا رد أو تفنيد إلا ما يذكر من ردود مجملة تضر ولا تنفع، شبهات كتلك الحكاية التي أوردها الشهرستاني عن أول شبهة وقعت في الخليقة/شبهة إبليس، وذكر أن هذه الشبهات والأسئلة "سارت في الخليقة، وسرت في أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة". [الملل والنحل]، شبهات وردت شديدة التفصيل في شروح الأناجيل كما ذكر، إلا أن الشبهات رغم تهافتها تجد الإجابات عليها مجملة لا تسمن ولا تغني من جوع، بل توحي بعجز الإله عن الرد!

ولذلك تأتي النصائح المباشرة للإنسان الذي ثقل به التكليف ولم يجد جواباً، بطرح التكليف جملة.

Guilt is like a bag of bricks. All ya gotta do is set it down ~(Al Pacino - Devil Advocate)

كل تلك النصائح تأتي في الفيلم على لسان "القديس المنبوذ الناصح!/إبليس" الذي قال للإنسان في سفر التكوين: "بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما و تكونان كالله". ولذلك قال الشهرستاني في الملل والنحل عن أهل الأهواء: "كلهم نسجوا على منوال اللعين الأول في إظهار شبهاته، وحاصلها يرجع إلى "دفع التكليف" عن أنفسهم". (دفع التكليف - set it down!).

والأخطر أن نفس فكرة التشكيك في هذا الوجود وجدت طريقها إلى أفلام الصغار، فتجد فيلم (**Horton**) يطرح عند الطفل إمكانية أن يكون العالم ما هو إلا (Speck) ذرّة صغيرة عالقة على زهرة يحملها "فيل منبوذ!" يجسد شخصية الإله، أو المهرطق. وهكذا يتحدث الفيل بشكل مباشر عن إمكانية أن يكون عالمه أيضاً ذرة أكبر يحملها شخص أكبر متهم هو الآخر بالهرطقة! فتجد سكان هذه الذرة الصغيرة يتحدثون عن الفيل هورتون بأنه: Horton is a giant elephant in the sky! ~Horton

وهكذا في السياق الكوميدي يتم طرح سؤال: ما العالم وما الوجود؟ ?What's the word!.
تلك مجرد شذرات من أفلام لا تناقش مسائل الإيمان أصلاً! فكيف بغيرها؟!

إشكالية القدَر:

أشرنا إلى محورية "القدر" في الدراما اليونيانية القديمة ووريثتها الأمريكية الحديثة. "القدر" تلك النقطة التي تلتقي عندها صفات العلم والقدرة والحكمة والعدل بواقع الناس وحياتهم اليومية، ولذلك كان القدر نظام التوحيد كما قال ابن عباس [شرح أصول السنة للالكائي]، وكان الضلال في القدر أصل كل شر في العالم كما قال ابن تيمية [الرسائل والمسائل].

وهكذا نجد بنية السيناريو السينمائي عندهم قائمة على عقيدة "الجبر". إذ إن نقاط الصراع المثيرة في السيناريو تقوم على الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وفي كل واحدة منها لا يعود أمام البطل سوى خيار واحد (حق أو باطل)، أو الموت! في معادلة موضوعية محكمة لعقيدة الجبر.

ولأن "الموت" يمثل ذروة الأقدار السيئة عندهم، يكثر في الأفلام الأمريكية فكرة إمكان "تغيير القدر" والفرار من الموت. فابتداء من فيلم (**Back to the future**) مرورًا بكل الأفلام التي تطرح فكرة "آلة الزمن" أو العودة للماضي لتغيير وقائع معينة كفيلم (**Deja Vu**)، انتهاء بسلسلة أفلام (**Final Destination**) الذي يطمح فيها الإنسان لكشف المستقبل وفهم "مسارات الموت" ومحاولة تفاديها، أو في أفلام تطرح فكرة الحياة الأبدية وتناسخ الأرواح في عوالم أخرى حقيقية أو افتراضية كما في فيلم (**Avatar**) و(**Source Code**).

وهكذا محاولات لا تنتهي لدفع القدر كما ذكرنا، أو الحصول على قوة مطلقة/معرفة مطلقة/حياة مطلقة ليصبح إله نفسه، إله كالله كما في سفر التكوين: "وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد":

until every human becomes an aspiring emperor, becomes his own God. ~(Al Pacino - Devil Advocate)

وهكذا تشغل قضايا القدر جزءًا كبيرًا من الأعمال السينمائية؛ كنتيجة طبيعية "للجبرية" الإلحادية الـمُرهَقة الساعية إلى التحرر والاستقلال.

نهاية العالم وسفينة النجاة:

تأتي "نهاية البشرية" على قمة ما يشغل صانع السينما الأمريكي، اختلفت التصورات البشرية و"التوجيه" واحد، قد تأتي النهاية بسبب أجرام سماوية هائلة تضرب الأرض كما في فيلم (**Deep Impact**)، أو فيضانات وبراكين كما في فيلم (**2012**)، أو غزو فضائي كما في فيلم (**Independence Day**)، هكذا تتنوع التصورات الحاكمة على عبثية الحياة وغياب العناية الإلهية، مع التأكيد على ضرورة توحد الإنسانية أمام الخطر الكوني/الإلهي الذي يهدد البشرية.

ولكن تبرز بعض الإشكاليات الإلحادية الكثيرة مع الاستدعاء المتكرر لـ "سفينة نوح" التي تحمل من كل زوجين اثنين، لكن هذه المرة لم تصنع السفينة على عين الله ولا برعايته وعنايته، ولا صنعها الرُسل الكرام، بل "صنعت في الصين!" مثلها مثل الهاتف أو جهاز الكمبيوتر، صنعتها أيدي شيوعية ملحدة، هكذا تتجرد الفكرة من أي مضمون قيمي في مقابل "قدرة العلم/التطور الصناعي" على إنقاذ البشرية من غضبة الإله/الكون، ولا ينجو من أهوال النهاية العبثية إلا العلماء وأصحاب الثروة بينما تتهدم قبة الفاتيكان -في مشهد متكرر- على رؤوس المصلين!

الحقيقة والوهم:

يعتبر التلاعب والتشكيك في "الحد الفاصل بين الحقيقة/الحق والوهم/الباطل"، أو التشكيك في قدرة العقل والحواس على اقتناص الحقائق -أساساً للفكرة الإلحادية. فتجد الحضور المتكرر لحالات "التوهم" كما في فيلم (Truman Show) وفيلم (Horton)، وبشكل أكثر تعقيداً في أفلام (The Matrix) وفيلم (Fight Club) وفيلم (The Others) وكذلك فيلم (Inception)، وغيرها من الأفلام التي تغيب في أحداثها الحدود الفاصلة بين الوهم والحقيقة، والتي كان من آخرها فيلم (Cloud Atlas) وهو إلى جانب مضامينه الإلحادية فهو يرسّخ لعقيدة تناسخ الأرواح وللشذوذ الجنسي. أفلام تأخذك في أحداث تكتشف أنها غير حقيقية، حتى إذا وصلت للحقيقة في آخر الفيلم تفاجأت أن هذه الحقيقة هي الأخرى غير حقيقية! حالة من التشكيك والخداع تدفع المشاهد إلى الشك في كل شيء حتى في وجوده، فما ظنك بغيره؟!

إشكالية المُخلص:

وأخيراً إشكالية "المخلص الملحد"، فكرة ترتبط بقوة "بالقديس المنبوذ/إبليس/المهرطق"، الذي تعاديه البشرية على اختلاف عقائدها. هل هو مخلصها الناصح؟! هكذا يطرح مقلوب المثل المعروف فيصبح: من تحسبه فرعون قد يكون موسى! وما أدراك؟! وفي المقابل تجد الإله/رجال الكنيسة همهم حماية "المكتسبات/قوة الكنيسة" لا "قوة الإيمان".

تجد نفس المعنى في فيلم (The Reaping) وفيلم (Davinci Code) وفيلم (Angels & Demons) أن هلاك الإيمان الحق إنما يأتي على أيدي رجال الكنيسة أو الـمُتشددين دينيًا، و"العالم الملحد" هو المخلص الذي ينقذ كنيسة الرب ويحمي الإيمان الحق، بل في فيلم (Davinci Code) تجد أن حامية السر الأعظم، وبقية سلالة يسوع المسيح وحفيدته ملحدة!

هكذا تُصور "أسئلة الوجود الكبرى" في سياق درامي معقد وبأدوات فائقة التطور في السينما الأمريكية تصويراً إيحائيًا يهدف من خلاله صانع الفيلم طرح سؤال "ولـمَ لا؟!"

ما ذكرناه في المقال أقل من عُشر المضامين الإلحادية التي تحملها الأفلام الأمريكية، لم نذكر الأفلام الإلحادية المباشرة، ولم نذكر الأفلام الوثائقية. ولعلك انتبهت إلى أن الأفلام ذات المضمون الإلحادي ترجع إلى ثلاثينيات القرن الماضي وهي في زيادة وتطور ويعاد إنتاجها.

أمام هذا السيل من الإلحاد الوافد -لا أقول الإلحاد العميق فحسب بل والإلحاد الشعبي أيضًا- لا نطمع في مواجهة الإلحاد على أرضه وبلغاته المتنوعة وأدواته الحديثة، لا نطمع في ترجمة كتب علماء أهل السنة إلى اللغات الأجنبية لصد الهجمات الإلحادية من المنبع، لا نطمع في تأسيس مراكز يجتمع فيها التخصصات الشرعية مع التخصصات العلمية والفلسفية لمتابعة مستجدات الحالة الإلحادية ومواجهتها.

كل ما نطمع فيه هو الإقرار "بحجم" الخطر؛ لأن الاعتراف بوجود "خطر" والإحساس به هو الخطوة الأولى والضرورية التي تتبعها تجهيزات "الاستعداد" لمواجهته. والمواجهة واقعة بالفعل؛ **فالأمر أقرب وأكبر مما نتصور!**

The worst vice is advice! | النصيحة = أسوأ رذيلة! | (Al Pacino - Devil Advocate)